بلاغةُ التّعالقِ القُرآنيّ في خِطابِ واقِعَةِ الطّفِّ

Rhetoric of Qur'anic Intertextuality in At-Taff Battle Discourse

أ.م.د. أُسامة حُسين شاهين

Asst.Dr. Osama Hussein Shaheen

العراق/ جامعةُ المثنّى/ كُلِّيَّةُ التَّربيةِ الأساسيَّة/ قسمُ اللُّغةِ العربيَّة

Iraq/Al-Muthanna University/College of Basic Education/
Department of Arabic Language

osama.shaheen@mu.edu.iq

خضع البحث لبرنامج الاستلال العلمي

Turnitin - passed research

مُلَخَّصُ البحث:

يشغلُ خطابُ واقعةِ الطَّفِّ مساحةً ثقافيّةً ومعرفيّةً، ما يجعلُها مَشهدًا يُعتادُ قراءتُه في تحيُّزاتٍ بلاغيّةٍ داخل بِنْيةِ الدُّعاءِ في أحداثِ عاشوراء، ليُسهمَ في التَّلاقي مع القرآنِ الكريم، في علاقاتٍ تواصليّةٍ تتَّسقُ مع سيرةِ الأنبياءِ (عليهم السلام)، في دلالةٍ مفهوميّةٍ مرجعيّةٍ تُؤطِّرها علاقةٌ مُنتظمةٌ في أسوارِ النَّصِّ القرآنيّ، فيكونُ خطابُ الطَّفِّ وسيلةً ناطقةً لتَعالُقِ النَّصِّ القرآنيّ في سياقٍ يُعنى بالإقناعِ، والتَّلقِّي، والفَهم، والدِّراسةُ قارّةٌ في نَثرٍ خطابِيٍّ يُسبغُ تأثيرَه على المتلقِّي، ينطلقُ من الدُّعاءِ بوساطةِ علاماتٍ مُختلفةٍ، تَغلَّفت بإطارٍ لَفظيٍّ يَستشرفُ المُستقبل، وَقَد سَعَى البَحثُ إلى استنطاقِ مفهومِ الاستدراج في سياقاتِه التَّعبيريّة، بوساطةِ بلاغةٍ مؤثِّرةٍ على جمهورِ المتلقِّين.

الكلمات المفتاحيّة : البلاغة، التَّعالُق، الدُّعاء، الخطاب، الاستشراف.

Abstract:

At-Taff battle discourse occupies a significant cultural and intellectual space, making it a familiar narrative for those who read into its rhetorical biases within the structure of supplications during the Ashura events. This narrative engages with the Glorious Qur'an through communicative relationships that align with the lives of the prophets (a.s.), drawing from a conceptual and referential framework bounded by the Qur'anic text.

Thus, the discourse of At-Taff becomes a speaking medium for the intertextuality of the Qur'anic text, within a context that focuses on persuasion, reception, and understanding. This study is grounded in a rhetorical prose that influences the recipient, beginning with supplication through various signs enveloped in a linguistic framework that looks toward the future. This study seeks to articulate the concept of gradual enticement in its expressive contexts, using a rhetoric that has a profound effect on its audience.

keywords : Rhetoric, Intertextuality, Supplication, Discourse, Foresight.

المُقدِّمة:

يَتدارَسُ البَحثُ أَفكارًا اِنبَثَقَتْ مِن دُعاءِ الإمامِ الحُسَين (عليه السلام) في يَومِ الطَّفِّ، ذلكَ الدُّعاءُ الَّذي تَرجَمَ الأَصلَ المَعرِفيَّ، وشَكَّلَ واقِعَةَ الطَّفِّ في الوِجدانِ الإنسانِيِّ، وَتَحَوُّلاتِها الاِستِشرافِيَّةَ، لِاعتِمادِها على حَيِّزٍ سِياقِيٍّ سُنَنِيٍّ مَثَّلَتهُ أَدعِيَةُ الأَنبِياءِ بِوساطَةِ صَيرُورَةٍ نَسَقِيَّةٍ تَمَثَّلَتْ المَفهومَ القُرآنِيَّ لِلسِّيرَةِ، على نَحوٍ تَضَمَّنَهُ الخِطابُ القُرآنِيُّ في أَشكالٍ مُختَلِفَةٍ، مُمَثَّلَةٍ بِمَضمُونِ الاِقتِصاصِ في ضَوءِ القُرآنِ الكَريمِ، كَما في قَولِهِ تَعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجرِمِينَ﴾[1]؛ فَالآيَةُ تُعطِي إِشارَةً إِلى ما سَيَقَعُ مِنَ العاقِبَةِ، وقَد تَجَسَّدَ ذلكَ فيما أَصابَ الإمام أَعداءَ الحُسَينِ (عليه السلام) يومَ عاشُوراء وَما بَعدَهُ، مِن تَحَقُّقِ الأَثَرِ الغَيبِيِّ، فكانَ الخِطابُ الدُّعائِيُّ عامِلًا مُهِمًّا في واقِعَةِ الطَّفِّ، إِذ أَسهَمَ في الوُصولِ إِلى سَعادَةٍ اِنعكَسَتْ على أَسارِيرِ العِبادِ قَبلَ كُلِّ شَيء. فَكانَتِ الواقِعَةُ اِختِبارًا لِلمُعَسكَرَين، وبَيَّنَتْ سَرِيرَةَ بَعضِهِم، حين تَحَوَّلَ مَن أَيقَنَ بِخِطابِ أَحَقِّيَّةِ قَضِيَّةِ الإمام الحُسَينِ (عليه السلام) إِلى النُّصرَةِ، فَالتَحَقَ بالإمام الحُسَينِ (عليه السلام)، مِن دُونِ البَقاءِ في حَيِّزِ الذَّنبِ، مهما كانَتِ النَّتائِجُ.

إِنَّ كشفَ صُوَرِ التَّعالقِ هو ما يَترُكُ أَثَرَهُ في سِمَةٍ مُعَيَّنَةٍ أَو إِشارةٍ دالَّةٍ على صِلَةٍ تُحَقِّقُها علامَةٌ بارِزَةٌ، تُؤَكِّدُ الاِنتِباهَ إِلى سِيرَةِ الطَّفِّ، فَقد خَرَجَ الإمام الحُسينُ (عليه السلام) مِن مكَّةَ المُكَرَّمَةِ، وهو يُرِيدُ أَنْ يُثبِتَ شَيئًا لا تُنجِزُهُ الطُّقُوسُ العِبادِيَّةُ أَو الفُرُوضُ الواجِبَةُ، بل يَتَعَلَّقُ بِالفِعلِ دُونَ القَولِ، مُمَثَّلًا بِالجِهادِ، فترَكَ الحَجَّ، واختارَ التَّوَجُّهَ

نَحوَ الفِعلِ البلاغِيِّ الَّذي يَقتَضِي السَّعيَ إِلى مُواجهَةِ الظُّلمِ، فَالجِهادُ الَّذي سارَ عَليهِ الإِمامُ الحُسَينُ (عليه السلام) مُتَحَقِّقٌ في سِيرَةِ الطَّفِّ وما اِنطَوَتْ عَليهِ مِن أَحداثٍ بَيَّنَتْ الصِّراعَ المَرئِيَّ وصِراعَ النَّفسِ غيرَ المَرئِيِّ، غَيرَ أَنَّ الاِشتِغالَ البلاغِيَّ يَسعَى إِلى كَشفِ مَساراتِ النّاسِ بَينَ الصُّورَتَينِ، بِالاِعتِمادِ على التَّماهِي بَيْنَ الخِطابَينِ: القُرآنِيِّ والدُّعائِيِّ، ثُمَّ تَلاقِيهِما في أَنساقٍ سُنَنِيَّةٍ كونِيَّةٍ مُتعَدِّدَةٍ.

ولَمَّا كانَتِ السِّيرَةُ فِعلًا بارِزًا لِلعِيانِ، فَقَد ساوَقَتها السَّرِيرَةُ، مَجبُولَةً على ما تَأَدَّبَتْ بِهِ وَتَرَعرَعَتْ عَليهِ، إِذ إِنَّ مَسارَ الطَّفِّ يُمكِنُ أَنْ يُعَبَّرَ عَنهُ ﴿يَومَ تُبلَى السَّرائِرُ﴾[٢]، وهذا ما قَدَّمَهُ مَوقِفُ الحُرِّ مِثالًا يُحتَذى في الاِنتِقالِ مِن تَوَجُّهٍ سُلطَوِيٍّ هابِطٍ إِلى آخَرَ سامٍ، حينَ تَحَوَّلَ، دُونَ وَجَلٍ، إِلى أَصحابِ الحُسَينِ، فَكانَ مِصداقًا لِانكِشافِ السَّرِيرَةِ في الطَّفِّ، وَأَسهَمَ في إِعلاءِ الفَضيلَةِ، فَسِيرَتُهُ قَبلَ مَوقِفِهِ هذا عُرِفَتْ بِالشَّجاعَةِ، غَيرَ أَنَّ عَقيدَتَهُ أَوحَتْ بِتَسَنُّمِهِ قِيادَةً رَفيعَةَ المُستَوى في الجَيشِ الأُمَوِيِّ –عَلى ما ذَكَرَتهُ المَرويّاتُ الطَّفِّيَّةُ–، لَكِنَّ التَّحَوُّلَ بِهذِهِ الكَيفِيَّةِ أَسَّسَهُ الفِعلُ البَلاغِيُّ الإِقناعِيُّ، فَأَسهَمَ في التَّلاقِي القِيمِيِّ بِوَساطَةِ مَوعِظَةِ الإِمامِ الحُسَينِ (عليه السلام) في لِقائِهِما قَبلَ يَومِ عاشُوراء.

فَما يُقَدِّمُهُ تاريخُ الرِّسالَةِ المُحَمَّدِيَّةِ يُشابِهُ واقِعَةَ الطَّفِّ، في مَشهَدٍ يُصَوِّرُ فيهِ القُرآنُ اِختِبارَ السَّرائِرِ، لِيَشتَقَّ مَشهَدًا يُضاهِي ما كانَ عَليهِ الجُمهورُ المُختَبَرُ في مَعرَكَةِ الأَحزابِ، كَما في قَولِهِ تَعالى: ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ

وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وبَلَغَتِ القُلُوبُ الحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾[٣]، فَالمَشهَدُ يَأْخُذُ مَسارَهُ المَنطِقِيَّ، لِقُربِهِ مِن تَصَوُّرِ واقِعَةِ الطَّفِّ، بِوساطَةِ كَثرَةِ الجَيشِ وَهَيبَتِهِ وَهَيمَنَتِهِ، وَقِلَّةِ عَدَدِ المَسارِ الإيمانيِّ المُقابِلِ. لَكِنَّهُ لا يُبالي بِالمَنطِقِ العَدَدِيِّ، وهذا ما يُبَيِّنُهُ الفِعلُ البَلاغِيُّ الخَفِيُّ السِّرِّيُّ، المُنطَوِي على وَعيٍ بِمَضمُونِ الخِطابِ القُرآنيِّ لِحوادِثَ مُتَعَيِّنَةٍ.

فكانت لَيلةُ الطَّفِّ سابِرَةً عن تَطابُقٍ بَينَ السِّيرَةِ والسَّريرةِ، مِمّا جَعَلَ الإمام الحُسَينَ (عليه السلام) يُثني على أصحابِهِ، فالوقتُ كانَ مُناسِبًا لِمَن يُريد أن يَتخلّى عن نُصرةِ الإمام الحُسَينِ (عليه السلام) في تِلكَ اللَّيلةِ. فالاختبارُ في جَوهَرِهِ كانَ يَستَهدِفُ خاوِيَ السَّريرةِ الإيمانيَّةِ، فيَنضَمُّ بنِفاقِهِ إلى مِصداقِ قولِه تعالى: ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾، فنَرى وُجودَ عَقيدةٍ فاسِدةٍ كامنةٍ في مَكاسِبَ دُنيَويَّةٍ مَنَحتها السُّلطةُ لِمَن يَصطَفُّ مَعَها بِوجْهِ الإمام الحُسَينِ (عليه السلام) في واقِعةِ الطَّفِّ، معَ عِلمِهم بأنّهم يُواجِهونَ الحَقَّ. فصارَ لِزامًا عليهم الإذعانُ لِقادةِ الجَيشِ، فَمالوا إلى الجانِبِ الدُّنيويّ، وهذا ما يُقدِّمُهُ التَّناقُضُ في السِّيرةِ؛ إذ كَتَبوا له وبايَعوه في مكاتيبِهم سِرًّا، وتَخلَّوا عنه علانيَةً، ما يُؤكِّدُ نِفاقَهم ومَيلَهم إلى الكُفرِ وابتعادَهم عن الحَقِّ الّذي يَتمثَّلُ بسيِّدِ شَبابِ أهلِ الجَنّةِ، وسِبطِ الرّسولِ صلى الله عليه وآله وسلم.

بالمُقابِل؛ فإنَّ أصحابَ الإمام الحُسَينِ (عليه السلام) لَم يُخالِجْهُمُ الشَّكُّ في قَرارِهم بمُواصَلةِ نُصرةِ الحَقِّ، والفَوزِ بأفضليّةِ الأصحابِ ـ بشهادةِ سيِّدِهم ـ وقد تَمثَّلَت هذه

الفِكرةُ في ما يُؤيِّده ثَباتُهم الّذي يَستَقي من الرّافدِ القُرآنيِّ المُوجَّهِ نَحوَ طَريقِ الحَقِّ الّذي يُوصِلُ إلى الله تعالى، وبهذا تَكتَسِبُ واقِعةُ الطَّفِّ أثرَها بوساطةِ بناءٍ فِكريٍّ قائِمٍ على الإيمانِ الحقيقيِّ، وعِندَها يُوقَنُ أنّ اللهَ يَنصُرُ المؤمنينَ ولو بعدَ حينٍ، وهذا المَعنى الاستشرافيّ يَحضُرُ في تَفاصيلِ الواقِعةِ مُنذُ يومِ انطِلاقِ الإمام الحُسَينِ (عليه السلام) قاصِدًا كربلاءَ، حتّى شَهادَتِه في يَومِ عاشوراء.

إنَّ هذهِ الأفكارَ لِكَي تُؤتي ثِمارَها يَتعيّنُ أن تُؤسَّسَ على دُعاءٍ مَأثورٍ صادِرٍ من أهلِ البيتِ (عليهم السلام)، وهو ما يُوفِّرُه عُروجُ السّالكينَ، الّذي سَنُحاوِلُ بوساطتِه أن نُؤسِّسَ لِما نَحتاجُ إليه مِن مَفاهيمَ سانِدةٍ لِبَيانِ حقيقةِ التَّعالقِ بالقياسِ على المَفهومِ الّذي يَرشَحُ مِن تَطبيقِنا لِلأدعيةِ المذكورةِ في الكِتابِ آنِفَ الذِّكر، ثُمَّ يَقِفُ البَحثُ على مُطابَقةِ بَعضِ المَفاهيمِ المُستخلَصةِ من مُقارَبةِ الدُّعاء، وبيانِ مُشابَهاتِها، وتَأكيدِ انطِلاقِها من رافِدٍ سَماويٍّ واحِد.

بَلاغةُ خِطابِ السَّرائر:

يَنفتِحُ هذا النَّوعُ مِن الدُّعاءِ على سُرودٍ تَكشِفُ مَدى طَبيعةِ العَلاقةِ بَينَ العَبدِ وربِّه، وما تَنطوي عليهِ هذهِ العَلاقةُ مِن ثَمرةٍ يَسعى الإنسانُ لِقَطفِها، وهو يُحاوِلُ أن يَتحرَّرَ مِن سَطواتِ النَّفسِ المُتحكِّمةِ بأهواءِ الإنسانِ، فغَدا أسلوبُ الدُّعاءِ طاقةً يَحتاجُ إليها العَبدُ في كُلِّ زمانٍ ومكانٍ، يَتضرَّعُ فيه لِذَنبٍ مُرتَكَبٍ أو لرَغبةٍ تُلهِبُ النَّفسَ[٤]، وحاجةُ الإنسانِ الدّائمةُ إلى مُحاولةِ خَلقِ تَوازُنٍ نَفسيٍّ ورُوحيٍّ دَفَعته إلى الدُّعاءِ والمُناجاةِ في سَعيِه إلى التقرُّبِ إلى الله تَباركَ وتعالى.

وتُشيرُ المُعطياتُ إلى مَضامينِ الدُّعاءِ فيما تَقتَرِحُه دَلالةُ الخِطابِ المُتشكِّلَةُ مِن مَلفوظاتِ الدُّعاءِ مُقترِنةً بمَحمولِ السَّريرةِ فِي ضِمنِ المَنظومةِ التَّعبيريّةِ؛ ممّا يُؤكِّدُ اكتِسابَها سِمةً تَختَصُّ بها دُونَ غَيرِها، فهي أقربُ إلى تَشكيلِ وظيفةٍ تُكلِّلُ الدُّعاءَ مِن بَدايتِه إلى نِهايتِه، فَتَرشَحُ سِماتٌ إبداعيّةٌ مُقتبَسَةٌ من مَضمونِه الكُلّيّ تُحاوِرُ السَّريرةَ، وتَكشِفُ عَمّا سَتؤولُ إليهِ في نِهايةِ مَعادِها.

إنَّ خِطابَ السَّرائرِ عُروجٌ يَسعى الإنسانُ بِهِ إلى التّوسُّلِ باللهِ تعالى سُبحانَه لِسَترِ ذُنوبِه، فيَتَناوَبُ فيه: السَّترُ والسِّرُّ، والسِّيرةُ والسَّريرةُ، وهي مَفاهيمُ مُتداخِلةٌ في خِطابِ الدُّعاءِ، ما يُؤشِّرُ أهميَّتَها وتَعدُّدَ أبعادِها ووظائِفِها.

وقِراءةُ مُستوياتِ إنتاجِ الخِطابِ الدُّعائيِّ، تَجعَلُنا نُميِّزُ بَينَ مُستوياتِ السِّيرةِ والسَّريرةِ. فقد يُؤشِّرُ بَعضُها مُطابَقةً تامَّةً عندَ الأنبياءِ والأوصِياءِ ﷺ، ثُمَّ يأتي بَعدَهم العُلماءُ فَتكونُ سِيرَتُهم مُتفاوِتةً، أمّا سائِرُ النّاسِ فيَتوافَرُ في أَدنى مُستوياتِه عِندَهم، ممّا يُؤكِّدُ استِحالةَ تَطابُقِ السِّيرةِ والسَّريرةِ تطابقًا مُطلَقًا وفي كُلِّ الأحوالِ، فهو ضَربٌ نادِرُ الحُدوثِ، لكِنَّهُ يَتبايَنُ عندَ الأطفالِ؛ لأنَّهم في مَجالٍ يَتَّسِمُ بصفاءِ التَّفكيرِ ونقاءِ الضَّميرِ.

إنَّ البَلاغةَ تَكشِفُ عن مَسارِ خِطابِ السِّيرةِ، وقُدرتِه على تَحقيقِ الإقناعِ في ما يُولِّدُهُ من قِيَمٍ مُختَلِفةٍ سانِدةٍ إِلَى مُقتَضى الدُّعاءِ، اعتمادًا على مُعطَى التَّجريدِ الّذي يَشتَمِلُ على سائِرِ أحوالِ النّاسِ، فمِيزانُ خِطابِ السَّرائرِ يَتساوى فيه الخَلقُ ـ مِن غَيرِ المعصومين ﷺ ـ في التَّقصيرِ تُجاهَ اللهِ المُنعِمِ.

وفي ضَوءِ المُعطياتِ السّابقةِ نَلمَحُ أنَّ الخِطابَ الدُّعائيَّ يَتفَوَّقُ على ألوانٍ أَدَبيّةٍ مُجاورةٍ؛ لِاستيعابِه عَلاقةَ العُبوديَّةِ لِلخالقِ، وما تَنطوي عليهِ مِن أَثرٍ في مُمارسةِ الإنسانِ حَياتَهُ الطَّبيعيَّةَ بِشيءٍ مِنَ الرّاحةِ والاطمِئنانِ، الّذي يَجعَلُ الفَردَ يَنغَمِسُ بِفاعليّةٍ تُحقِّقُها تِلكَ الصِّلةُ الغَيبيّةُ، وما يُمكِنُ أنْ يُسبِغَهُ الدُّعاءُ على النَّفسِ الإنسانيّةِ مِن ارتِياحٍ وتَفاؤلٍ، فَتَرقى إلى السَّعادةِ مَهما كانَت بَعيدَةَ المَنالِ. ومِنَ الدُّعاءِ ما يَصطبِغُ بالأثرِ القُرآنيِّ الّذي ذُكِرَ حِكايةً عنِ النَّبيِّ مُوسَى (عليه السلام) في قولِه تعالى: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾[٥].

إنَّ الدُّعاءَ يُؤسِّسُ لعلاقةٍ مُستمدَّةٍ من لُطفِ الخالقِ بعبادِهِ، إذ يَحسُّ المؤمنُ في ممارستِهِ سِمةَ السَّعادةِ التي تُحفِّزُ الدّاعي إلى سُبُلٍ ساميةٍ، وهذا ما يجعلُ الدُّعاءَ في حقيقته منهجَ حياةٍ، وأسلوبًا تربويًّا ترشيديًّا تتمدَّد آفاقُه لتشملَ علاقةَ الفردِ بخالقِهِ، وعلاقتَهُ بنفسِهِ، وعلاقتَهُ بالآخر فردًا ومجتمعًا وبيئةً، فهو خطابٌ إنسانيٌّ يكشفُ عن حقيقةِ الإنسانِ، وعن صلاحيّتِهِ واهتماماتِهِ الكونيّة، ويشملُ جُلَّ أحوالِ الإنسانِ في قلقِهِ وراحتِهِ[٦]، فهو مَلاذُ الإنسانِ حينَ يُريدُ الخَلاصَ من عوالقِ الذنوب، ووسيلةٌ أُسُّها التَّطهيرُ، تُقدِّمُها ملفوظاتٌ تُعينُ الذّاتَ على تجاوزِ ما ألمَّ بها من خيباتٍ، وعلاجٌ يَتوخّى منها تجاوزَ النّفسِ لما تلاقيه من أشتاتِ الهموم، والعقباتِ في مسيرتِها.

ويمكنُ أنْ يعتادَ الإنسانُ على ممارستِهِ في أُطرٍ كَونيّةٍ توقيفيّةٍ –لِمَنْ يُريدُ جنْيَ

السَّعادة– بوصفِهِ ملفوظًا مُؤثِّرًا يتردَّدُ في مواسمَ ثابتةٍ، وهو وسيلةٌ لا يُستهانُ بها في تهذيبِ النَّفسِ ورُقيِّها، ويمكنُ أنْ يُحيطَ الإنسانُ بمِساحةِ التَّفكيرِ الّتي تَسمو بالذّات، فيُؤلِّفُ قيمًا معرفيّةً تُؤثِّرُ في بناءِ الإنسانِ، وتُهذِّبُ ذَوقَهُ، لوقوعِهِ في ضِمْنِ نطاقِ النَّثرِ الخِطَابيّ(٧)، وذلك لأنَّهُ يُمثِّلُ خطابًا مُهمًا لمواصلةِ الإنسانِ الحياةَ، على وفق خطواتٍ يُريدُها الخالقُ منه، في بناءٍ لغويٍّ فنّيٍّ مُحكَمٍ يتعاضدُ مع أساليبَ تعبيريّةٍ بلاغيّةٍ، فيُشكِّلُ رسالةً إصلاحيّةً مُكثَّفةً ناتجةً عن طقوسٍ عباديّةٍ مُعيَّنة.

إنَّ تحديدَ مُعطَى الدُّعاء المُتوسِّلِ بإخفاءِ السَّرائرِ أسفرَ عمّا وصل إلينا من خطابٍ مُؤيَّدٍ ثبوتُهُ «من أنبياءَ وأئمّةٍ معصومين يحملُ خطابُهم قيمًا معرفيّة»(٨)؛ وهذا ما يجعلُهُ طريقةً مُثلى متَّحِدةً مع الأثرِ الأقدس، فيأخذُ منهُ تصوُّراتِهِ في بُنيةٍ نصيّةٍ تتمثَّلُ في:

أ– الدّاعي: وهو العبدُ بصيغةِ الفردِ أو الجماعة.

ب– المدعوّ: وهو اللهُ تعالى.

ج– الدُّعاء: وهو الطَّلبُ من الله تعالى.

د– المدعوُّ له: وهو الحاجةُ التي يرفعُها الدّاعي إلى اللهِ راجيًا تحقيقَها(٩).

ويمكنُ النَّظرُ إلى هذهِ البنيةِ بوساطةِ الوظيفَةِ الّتي يَسْعَى الدّاعي إلَى جَنْيِ ثِمَارِها، في صورةٍ خطابيّةٍ تتَّحِدُ فيها إرساليّةٌ مختصَّةٌ بالخِطَابِ تَقعُ بين «رسالة المُنتِج، وَرِسَالة المُرسِل، أمّا المُرسَلُ إليه فهو اللهُ –عزَّ وجلَّ– في الوظيفةِ النّفعيةِ للدُّعاء الّتي يشتركُ

فيها المُنتِجُ والمرسِلُ، وأمّا في وظائفِ الدُّعاء الأُخرى فإنَّ المُرسَلَ إليه يكونُ المُتلقِّي الّذي يَصِلُهُ الدُّعاءُ ويُرادُ التَّأثيرُ فيه، ويكونُ المُرسِلُ مُرسَلًا إليه بلحاظِ رسالةِ المُنتِج»[١٠]، ثمَّ ينصرفُ الدُّعاءُ ليُشكِّلَ عناصرَهُ بتعدُّدِ صُوَرِ المتلقّي، وهذا ما يُعطيهِ ميزةً فريدةً حين «يمثّلُ المتلقّي عنصرًا فاعلًا في سِيَاقِ الحَالِ للخِطَابِ الدُّعائي، وَلا سيَّما المتلقّي الأوَّل الذي ينعكسُ موقعُهُ على لغةِ الخِطَابِ، وَصِيَاغَةِ مُفرَدَاتِهِ وَتَرَاكيبِهِ بِلُغةٍ حَذِرَةٍ عاليةِ التأدُّب، يُهَيمِنُ عَلَيها التَمَسكُنُ، والاعتِذَارُ، والاعتِرَافُ، والتّصاغُرُ أمامَ جَلالِ اللهِ وعَظمتِهِ، وللمتلقِّي الثَّاني أثرٌ أيضًا في الخطابِ الدُّعائيّ»[١١].

إنَّ هذا التَّصنيفَ يُبيّنُ أثرَ المُرسِلِ أو مُنتِجِ الدُّعاء وماهيَّةَ رِسَالتِهِ مع وضوحِ سِيرتِهِ، وخُلُوصِها من الذُّنوبِ، ونَقَائِها من العُيوبِ، لِمَا وَعاهُ النّاسُ من مَحمُودِ أخبارِهِ، فيصوغُ خطابَهُ بالأدبِ العالي والخُلُقِ الرَّفيعِ، ويُنزِلُ نفسَهُ منزلةَ المُقصِّرينَ المُذنبينَ، إذ لم يُؤدِّ حقَّهُ كما يليقُ بسموِّ قُدسِهِ وعزّةِ جلالِهِ، كما يُنزِلُ المُنتِجُ نفسَهُ منزلةَ المذنبينَ في سِيَاقِ تَحمِيلِ نَفسِهِ ذُنوبَ الأمّةِ أسَفًا عَلَى غَفْلَتِهم عَن حقِّ اللهِ، وجَهلِهم بِمَا يَليقُ به من الطّاعةِ، ورحمةً بهم، وشفقةً عَليهم، فَهو إذ يُقبِلُ عَلَى ربِّهِ بالدُّعاءِ يَستَحضِرُ ما يَصدُرُ من موبقاتٍ، فيشعرُ بالخَجلِ أمامَ الربِّ العَظيمِ الذي عَصَاهُ النّاسُ المحيطونَ به، فينتابُهُ الحياءُ[١٢].

وتأسيسًا على مَا سَبق، فالدُّعاءُ نَصٌّ يتوسَّلُ به الإنسانُ إلى اللهِ تعالى لسدِّ حاجاتِهِ، واستقامةِ حياتِهِ، ونظمِ مستقبلِهِ، وتنقيةِ ذاتِهِ، وقد تنوَّعت مَوضوعاتُ الدُّعاءِ في

توطيدِ الغايةِ منه، والطريقةِ التي يتبنّاها الفَردُ في الوصولِ إلى مَرماهُ والحصُولِ عَلى غَايتِهِ، ولمّا كَانت مَوضُوعَاتُ الدُّعاءِ كثيرةً، فقد وَقَعَ الاختيارُ على مُقارَبَةِ «السَّريرةِ» بوصفِها عَلامةً مُضمرةً تُخبِئُ الأشياءَ، وتقابلُها «السِّيرةُ» التي هي عَلامةٌ بارزةٌ، وبهذهِ الثنائيّةِ يتعيَّنُ كشفُ التلاقي والاختلاف بينهما محتكمين إلى نَسَقِ الخطابِ وتشكيلِ عناصرِهِ ووظائفِهِ، وتتعدَّدُ مَعاني هذا المَفهُوم، لِما يَحويهِ من أثرٍ يَتخفَّى عندَهُ الغرضُ، وقد تناولتِ المُعجماتُ المُصطلحَ السِّرَّ من زوايا مختلفةٍ، فهو ما «يُكتَمُ، وجمعُه أسرار، والسَّريرةُ مِثلُه، وجمعُها سَرائر»[١٣]، وبهذهِ العلاماتِ اللَّفظيّةِ المتفاوتةِ يَتمثَّلُ معنى أسرَّ الشَّيءَ، أي كَتَمَهُ، «وسَرَرْتُ سِرَّكَ ولم أَبُحْ به لأحدٍ، وأسرَّ منه الحديثَ: كَتَمَهُ وأخفاهُ، وأسرَّ الأمرَ والسِّرَّ، وأسرَّ النَّدامةَ في قلبِهِ: أخفاها»[١٤]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾[١٥].

وَعَلامةُ بَلاءِ السَّرائرِ تتعلَّقُ بصيرورتِها من كِتمانٍ مقصودٍ لِجَزاءٍ يُحيطُ بالذَّاتِ، فيكونُ تِبيانًا لمضمونِ «تُبلى»؛ أيْ: «تُختبَرُ بإظهارِها وإظهارِ مُوجِبِها؛ لأنَّ الابتلاءَ والاختبارَ والاعتبارَ كلَّه إنَّما هو بإظهارِ مُوجِبِ المعنى؛ ففي الطّاعةِ الحمْدُ والثّوابُ، وفي المعصيةِ الذّمُّ والعِقابُ»[١٦]، وقد يتَّسعُ المعنى المرادُ فيشمل «البلاءَ والاختبارَ والتعرّفَ والتصفّحَ، فالمعنى يومَ يُختبَرُ ما أخفاه الإنسانُ وأسرَّه من العقائدِ وآثارِ الأعمالِ خيرِها وشرِّها، فيُميَّزُ خيرُها من شرِّها ويُجزى الإنسانُ به»[١٧].

وقد أيّدت بعضُ الآياتِ المُباركةِ هذا المَعنى؛ فَجَاءَت مُبيِّنةً لمَعْرِفَةِ الله تَعَالى بالسَّرائرِ، قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ﴾[١٨]، ومثلُها قوله

سبحانه: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾[١٩]، وتُؤشِّرُ هذهِ النُّصوصُ المباركةُ إلى قُدرةِ الله سبحانه على مَعرفةِ سَرائرِ عبادِه، وقريبٌ منها مُعطًى لفظيٌّ يتَّصلُ بدائرةٍ مفهوميّةٍ مُقترنةٍ بمعنى الإسرارِ الّذي يُقابِلُ الإعلانَ، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾[٢٠]، وَقال تعالى: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾[٢١]، ويُستعمَلُ «السِّرُّ» في الأعيانِ من المعاني، وهو الحديثُ المكتومُ في النَّفسِ[٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾[٢٣]، وقوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾[٢٤]، فالمعاني التي يُجلّيها الخِطَابُ القُرآني تتمثّلُ فيما يُضمرُه القلبُ، وتشملُ سلوكًا يَقُومُ به الإنسانُ في دائرةِ المُشَاهَدةِ اللَّحظِيّةِ، وَهُو مَكتُوبٌ في عِلمِ الله الأزليّ. والسَّرائرُ في سِياقِها القُرآني تعني ما يُكِنُّه الإنسانُ عن النَّاسِ خَشيةً من أبناءِ مُجتَمَعِه.

وَيَتَولّدُ عن مَفهُومِ السَّرائرِ مُصطلحُ السَّريرةِ، وهي «الطَّويّةُ في النَّفسِ، وهو إسرارُ المعنى في النَّفسِ، وقد يكونُ الإسرارُ من واحدٍ بعينه مع اطّلاعِ غيرِه عليه، فلا يكونُ سَريرةً، وقيل: إنَّ اللهَ يفضحُ العاصي بما كان يَستُرُ من معاصيه، ويجلّ المؤمنَ بإظهارِ ما كان يَسرُّه من طاعته ليكرّمه النَّاسُ بذلك ويُجلُّوه»[٢٥]، فتكونُ السَّرائرُ في يومِ الجَزاءِ جَلْدًا للجاحدِ، ونِعمةً متمِّمةً لنِعَمِ الله على المؤمنِ في سَترِه يومَ تُبلى السَّرائرُ، إذ إنَّه لُطفٌ غيبيٌّ لِمَا ستؤولُ إليه حالُ المؤمنِ في الجنّةِ؛ فكيف يكونُ حالُه لو لم يُنعِمِ اللهُ عليه بخفائها عن العبادِ؟! فهو لُطفٌ لا حدَّ له، يَرعاه اللهُ تعالى لعبادِه الذين اصطفى من قبلُ.

ولمّا كان التَّقابُلُ يُبرزُ الأشياءَ بمقارنتِها بأضدادِها، فإنَّه يكشفُ علامةً جديدةً تقومُ على وعيِ الإنسانِ في استخلاصِ نتيجةٍ أشارَ إليها الإمامُ عليٌّ (عليه السلام) في وصفِ حُسنِهما: «حُسنُ السّيرةِ عُنوانُ حُسنِ السَّريرةِ»[٢٦]، ويستوفي التَّلاقي بينهما العُلقةَ الخفيّةَ، ويُؤشِّرُ أهمّيّةَ السيرةِ في اختبارِ النَّاسِ للسريرةِ، وقد يُلتمَسُ من هذه المقابلةِ فوائدُ مُضافةٌ تتراوحُ بين: العدلِ، والإحسانِ، والعُدوانِ، كما رُويَ عن أبي عبدِ الله الصَّادقِ (عليه السلام): «إذا استوت السّريرةُ والعلانيةُ فذلك العدلُ، وإنْ كانتِ السَّريرةُ أحسنَ من العلانيةِ فذلك الإحسانُ، وإنْ كانتِ الْعَلانِيةُ أحسنَ من السّريرةِ فذلك العدوانُ»[٢٧].

والسَّريرةُ تُسهِمُ في تَشكِيلِ سُلوكٍ إنسانِيٍّ يَتَّسِمُ بِالإيجابِ؛ فَلو زالَ سَبَبُ الخَفاءِ لانكَشَفَتْ طَوِيَّتُهُ؛ فهي وَسمٌ لِصاحِبِها بِطِيبِ السَّريرةِ[٢٨]، فالثَّناءُ أَبهى عَلاماتِها، وقَد تَكُونُ سَبَبًا لِجَزاءٍ خاصٍّ؛ لِأَنَّ «اللهَ سُبحانَهُ يُدخِلُ بِصِدقِ النِّيَّةِ وَالسَّريرةِ الصَّالِحَةِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ الجَنَّةَ»[٢٩]، وهذا ما يَجعَلُ الإنسانَ يَسعَى دائِمًا لِتَحصِيلِها، على الرَّغمِ مِنْ أَنَّها تَشتَرِطُ مُجاهَدَةً خاصَّةً، وهذا المَعنَى نَجِدُهُ في دُعاءِ أَبِي حَمزَةَ الثُّمالِيِّ: "مالِيَ كُلَّما قُلْتُ قَدْ صَلُحَتْ سَرِيرَتِي، وَقَرُبَ مِنْ مَجالِسِ التَّوَّابِينَ مَجْلِسِي، عَرَضَتْ لِي بَلِيَّةٌ أَزالَتْ قَدَمِي»[٣٠]، فَالتَّعبِيرُ بِالتَّكرارِ في استِعمالِ «كُلَّما» يُنبِئُ عَنْ أَرَقٍ يَعتَرِي الذَّاتَ مِنْ أَجلِ صَلاحِ السَّريرةِ؛ لِما تَخشاهُ يَومَ عَرضِها على الأَشهادِ، وَما يُطوَى في خُلدِ العَبدِ مِنْ دَوافِعَ تَجعَلُهُ يَتَوَسَّلُ إِلَى اللهِ تَعالى لِتَخلِيصِ نَفسِهِ مِنْ وَجَعِ السَّريرةِ، في ضِمنَ نَسَقٍ يَأْخُذُ مِنْ أُسلُوبِ الدُّعاءِ مِساحَتَهُ التَّعبِيرِيَّةَ الْمُتوافِقَةَ مع طَبِيعَةِ دَوافِعِهِ وَحالَتِهِ

النَّفسِيَّةِ في وِعاءٍ سَماوِيٍّ ثَرِيٍّ وَأَكثَرَ فاعِلِيَّةً، وَأَبلَغَ في التَّعبيرِ مِنْ أَجلِ الوُصُولِ إِلى ما يَطْلُبُهُ العَبدُ. إِذ تُمَثِّلُ السَّريرةُ الآبِقَةُ عِندَ سائِرِ النّاسِ تَورِيَةً مَقْصودَةً يُمارِسُها الإِنسانُ لِيَستُرَ عَمَلَهُ الهابِطَ.

خِطابُ السِّيرةِ وَالسَّريرة:

لَمَّا كانَتِ الصُّوَرُ الخِطابِيَّةُ سابِرَةً لِمَشرُوعِيَّةِ الأَفْكارِ المُختَلِفَةِ، كانَ مِنَ الضَّرُورِيِّ بَيانُ البُعْدِ الأَوَّلِ الَّذي يَنطَوِي عَلَى سُلُوكٍ يُنْبِذُهُ المُجتَمَعُ وَتُحَرِّمُهُ الشَّرِيعَةُ، فَيُوَلِّدُ هَيئَةً غَيرَ مَرئِيَّةٍ لِلنّاسِ باقِيَةً فِي قَلْبِ مَنْ قامَ بِها[٣١]، أَمَّا البُعدُ الثّانِي: فَيَتَناوَلُ مِساحَةَ العَبدِ فِي حَرَكاتِهِ وَسَكَناتِهِ المُختَلِفَةِ فِي إِطارِها المَرئِيِّ الواضِحِ لِلْعِيانِ، وهَذانِ البُعدانِ يُحَدِّدانِ طَبَقاتِ النّاسِ، ويَجعَلانِنا نَفهَمُ مُنشِئَ الخِطابِ وسِيرَتَهُ، فَهَل يَقصِدُ الأَنبِياءُ حَقيقَةَ المَلفُوظاتِ الَّتِي تُظهِرُ نَدَمَهُم فِي الدُّعاءِ؟ بِالتَّأْكِيدِ لا، وَإِنَّما تَتَطَلَّبُ مُمارَسَةُ الدُّعاءِ إِظْهارَ التَّحَسُّرِ لِيَكُونَ طَرِيقَةً تَعلِيمِيَّةً تُوَضِّحُ أَدَبَ مُخاطَبَةِ الخالِقِ المُنعِمِ على عِبادِهِ. مِثالٌ تَوْضِيحِيٌّ:

فِي عُرُوجِ الدُّعاءِ الجامِعِ المَروِيِّ عَنِ الإِمامِ الصّادِقِ (عليه السلام) مِثالٌ جَلِيٌّ[٣٢]، حَيثُ يُثْبِتُهُ مُنتِجُ الخِطابِ فِي قَولِهِ: «اللهُمَّ إِنِّي أَسأَلُكَ مَفاتِيحَ الخَيْرِ وَخَواتِيمَهُ وَشَرائِعَهُ وَسَوابِقَهُ وَفَوائِدَهُ وَبَرَكاتِهِ ما بَلَغَ عِلْمَهُ عِلْمِي وَما قَصُرَ عَنْ إِحْصائِهِ حِفْظِي... وَما أَعْلَنْتُ وَما أَسْرَرْتُ فَاغْفِرْهُ لِي يَا أَرْحَمَ الرّاحِمِينَ، وَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّيِّبِينَ كَما أَنْتَ أَهْلُهُ يَا وَلِيَّ المُؤْمِنِينَ»[٣٣].

المُرسلُ إِلَيهِ الأَوَّلُ (المُتَلَقِّي الأَعلى): هو الذَّاتُ الإِلَهِيَّةُ المُستَدعاةُ بِصيغَةِ النِّداءِ «اللهُمَّ". المُرسلُ إِليهِ الثّانِي (المُتَلَقِّي البَشرِيّ): هو العَبدُ المُذنِبُ، وبِجَمعِ القَرائِنِ مِنْ كلامِ المُنتِجِ المَعصُومِ، ورَبطِها بِواقِعِهِ وسِيرَتِهِ الَّتِي يَمتَنِعُ فِيها صُدُورُ الذَّنبِ عَنهُ حَقِيقَةً، يَتَبَيَّنُ أَنَّ الْغَرَضَينِ هُما:

١. التَّعلِيمُ بِلِحاظِ المُتَلَقِّي الثّانِي.

٢. إِنزالُ النَّفسِ مَنزِلَةَ المُذنِبِ لِشُعُورِهِ بِالتَّقصِيرِ أَمامَ عَظَمَةِ اللهِ تَعالى الَّذِي عَرَفَهُ حَقَّ المَعرِفَةِ(٣٤).

هكذا يَنكَشِفُ مِنْ تَلاقِي السِّيرَةِ وَالسَّرِيرةِ بَيانُ عَناصِرِ الخِطابِ، وَصُورَةُ المُتَلَقِّي الأَوَّلِ وصفًا لِلذَّاتِ المُطلَقَةِ فِي الوُجُودِ الَّتِي تَستَحِقُّ التَّعظِيمَ وَالتَّبجِيلَ، وهذا ما يُفَسِّرُهُ الوَصفُ: (إِنَّكَ أَنتَ العاصِمُ المانِعُ وَالدَّافِعُ الواقِي مِنْ ذٰلِكَ كُلِّهِ)، فَيَتَبَيَّنُ اختِصاصُ بَعضِ عَناصِرِ خِطابِ الدُّعاءِ بِاللهِ سُبحانَهُ وَحدَهُ، فالسِّيرَةُ تُعطِي إِفاضَةً مُطْلَقَةً، فَيَنجَذِبُ العَبدُ نَحوَ تَجمِيلِها بِما يَعِيشُهُ مِنْ حَياةٍ مُصطَنَعَةٍ يُخاتِلُ بِها رَذائِلَ الأَخلاقِ وعَظِيمَ الذُّنُوبِ، بَينَما السَّرِيرةُ فلا سَبِيلَ إِلى إِبعادِها عَنِ الكَشفِ الكُلِّيِّ مَهما طالَ الأَمَدُ؛ لِوُضُوحِها عِندَ اللهِ تَعالى، فلا مَفَرَّ لِلعَبدِ إِلّا الإِذعانُ لِنَتائِجِها المُؤَجَّلَةِ.

وَتُمَثِّلُ السِّيرَةُ مَنهَجًا لِجَسِّ السَّرِيرَةِ، وافتِرَاضِ كُنهِهَا فِيمَا يَستَشِفُّهُ المُتَأَمِّلُ في تِلكَ الشَّخصِيَّةِ، وهذَا المَعنَى يُجَلِّيهِ مُرسِلُ الدُّعَاءِ: «إِنْ كَانَ فِي أُمِّ الكِتَابِ عِندَكَ أَنِّي شَقِيٌّ أَو مَحرُومٌ أَو مُقَتَّرٌ عَلَيَّ فِي رِزقِي فَامحُ مِنْ أُمِّ الكِتَابِ شَقَائِي وَحِرمَانِي وَإِقتَارَ رِزقِي،

وَاكتُبنِي عِندَكَ سَعِيدًا مُوَفَّقًا لِلخَيرِ مُوَسَّعًا عَلَيَّ رِزقُكَ، فَإِنَّكَ قُلْتَ في كِتَابِكَ المُنْزَلِ عَلَى نَبِيِّكَ المُرسَلِ صَلَوَاتُكَ عَلَيهِ وَآلِهِ: ﴿يَمحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾[٣٥]، وَقُلْتَ: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيءٍ﴾[٣٦]، وأَنَا شَيءٌ فَلتَسَعنِي رَحمَتُكَ، يا أَرحَمَ الرَّاحِمِينَ، وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ»[٣٧]، فَالعَبدُ يُحاوِلُ دائِمًا أَنْ يَقبِسَ الرَّحمَةَ مِنَ اللهِ تَعالَى، فهو أَعلَمُ بِسُلُوكِهِ المُعلَنِ والخَفِيِّ؛ لذلك فَإِنَّ أَعظَمَ صُوَرِ تَلَاشِي الذَّاتِ مَعرِفَتُهَا بِجَهلِهَا، وهي حَالٌ مَشفُوعَةٌ بِخَوفٍ مُطْبِقٍ مِنْ هتكِهَا وَافتِضَاحِ أَكَاذِيبِهَا على الخَلقِ، فَيَرِدُ طَلَبُ المَدَدِ بِالقَولِ المَأْثُورِ مِنَ الدُّعَاءِ: «وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ تَجعَلَنِي عِظَةً لِغَيرِي»[٣٨]، فهذا المَعنَى يَتَجَلَّى في صُورَةِ الإِنسَانِ المُمَاثِلَةِ لِلسَّرَائِرِ إِذا سَقَطَ قِنَاعُهَا، فَيُعرَضُ على رُؤُوسِ الأَشهَادِ، أَمَّا العِظَةُ لِلآخَرِينَ فَتَختَصُّ بِما يُوَاجِهُ الإِنسَانَ مِنْ كَشفٍ مُفَاجِئٍ يُصِيبُ طَوِيَّتَهُ، وهو يُشَابِهُ ذُيُوعَ الخَبَرِ في عَصرِ الصُّورَةِ ووَسَائِلِ التَّوَاصُلِ المُختَلِفَةِ؛ فَرَفعُ سِترِ اللهِ سُبحَانَهُ في الآخِرَةِ، يُضَاهِي ما عَلَيهِ صُورَةُ الإِنسَانِ في الحَيَاةِ الدُّنيَا، فَيَغدُو مِثَالُ التَّوَاصُلِ الِافتِرَاضِيِّ المُعَاصِرِ أَبهَى صُورَةً لِما نَرَاهُ اليَومَ مِن افتِضَاحِ مُستَعمِلِي تِلكَ الوَسَائِلِ، وكَأَنَّهَا شَاهِدُ عِيَانٍ لِما سَيَئُولُ إِلَيهِ أَمرُ النَّاسِ في عَرَصَاتِ يَومِ القِيَامَةِ.

إِنَّ المُكَوِّنَ البَلاغِيَّ في خِطَابِ الدُّعَاءِ يَجُسُّ خِطابَ السَّرِيرَةِ، بِالِاستِعَانَةِ بِهذا المَقطَعِ: «وَذَلِّلنِي بِإِعطَاءِ النِّصفِ مِنْ نَفسِي في جَمِيعِ المَوَاطِنِ في الرِّضَا والسَّخَطِ، والتَّوَاضُعِ، والقَصدِ، وَتَركِ قَلِيلِ البَغيِ وكَثِيرِهِ في القَولِ مِنِّي والفِعلِ»[٣٩]، فَطَلَبُ العَونِ مِنَ اللهِ دَلِيلٌ على سَعيِ العَبدِ إِلى تَوَخِّي القُربِ لِمُطَابَقَةِ (السِّيرَةِ وَالسَّرِيرَةِ)،

وهي مُطَابَقَةٌ تَحكُمُ أَفعَالَهُ وأَقوَالَهُ، ثُمَّ سُلُوكَهُ. فَطَلَبُ إِعطَاءِ النِّصفِ سِمةٌ حَاكِمةٌ تُعِينُ الإِنسَانَ على مُزَاوَلَةِ شُؤُونِهِ الحَيَاتِيَّةِ دُونَ إِسرَافٍ، فإذا أَفرطَ في المُعاملةِ أَو قَصَّرَ، أُصِيبَ بِضرَرٍ، وَمِنْ ثَمَّ يَحتَاجُ العَبدُ إِلَى عَونٍ مُضَاعَفٍ مِنَ اللهِ لِتَيسِيرِ ذَلك لهُ، فَيُحَقِّقَ الاِستِقَامَةَ المُؤَيَّدَةَ بِتَوفِيقِ اللهِ وَنَصرِهِ على نَفسِهِ.

بَلَاغَةُ التَّقَابُلِ فِي الْخِطَابِ الدُّعَائِيِّ:

بِوُسعِنَا دِرَاسَةُ التَّقَابُلِ في الخِطَابِ الدُّعَائِيِّ؛ لِأَنَّهُ يُسهِمُ في «تَشقِيقِ المَعَانِي انطِلَاقًا مِنَ الأَلفَاظِ اليَسِيرَةِ، وَيَمنَحُ القَارِئَ المُتَفَهِّمَ وَالمُؤَوِّلَ إِمكاناتٍ هَائِلَةً لِتَوسِيعِ الدَّلالةِ، سَوَاءٌ تَعَلَّقَ الأَمرُ بِتَقَابُلِ التَّرَادُفِ أَو التَّمَاثُلِ المعنَوِيِّ، أَو تَقَابُلِ التَّضَادِّ وَالتَّخَالُفِ؛ لأَنَّ الأَشيَاءَ تَتَجَلَّى بِنَظَائِرِها، أَو بِأَضدَادِها، أَو بِتَمَاماتِها»[٤٠].

وفي المَقطعِ الآتي مِنَ الدُّعَاءِ يَقُولُ الإِمَامُ (عليه السلام): «إِلهِي، مَا دَعاكَ مَنْ لَم تُجِبهُ؛ لِأَنَّكَ قُلتَ: ﴿ٱدْعُونِي أَسْتَجِب لَكُمْ﴾[٤١]، وأَنتَ لَا تُخلِفُ المِيعَادَ، فَصَلِّ على مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ، يا إِلَهِي، وَاستَجِب دُعَائِي»[٤٢]، تُؤَكِّدُ هذهِ المُقَابَلَةُ أَنَّ تَأَخُّر إِجَابَةِ الدُّعَاءِ مُؤَشِّرٌ على قُصُورٍ أَو غَفلَةٍ تَعتَرِي أَعرافَ الدُّعاءِ، مِمَّا يَحُولُ دُونَ الوُصُولِ لِلطَّلَبِ المَنشُودِ، وقَد يُثمِرُ الالتِزَامُ بِها صُورَةً مُختَلِفَةً فِيما يَئُولُ إِليهِ الدُّعَاءُ، فَيُفَسِّرُ ذلك انبِجَاسَ مسارِهِ وانتِفَاءَ الطَّلَبِ كَوَسِيلَةٍ لِتَحقِيقِهِ، فالأَمرُ موكُولٌ إِلى غَفلَةٍ تُصِيبُ الدَّاعِي، فَيَنتُجُ عنها تَأجِيلُ الاستِجَابَةِ، ويُلحَظُ تَضمِينُ المُقَدِّماتِ بِطلبِ الصَّلاةِ على مُحَمَّدٍ وَآلِهِ (عليهم السلام)؛ فهي مِفتَاحُ الإِجَابةِ المُنتَظرةِ المُحَقِّقَةِ لِلفَردِ مَصلحَتَهُ:

«اللهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ، وَاغفِر لِي مَا قَدَّمتُ وما أَخَّرتُ، وَما أَعلَنتُ وَمَا أَسرَرتُ، وَمَا أَنتَ أَعلَمُ بِهِ مِنِّي، وَأَنتَ المُقَدِّمُ وَأَنتَ المُؤَخِّرُ»(٤٣).

فيتّضِحُ جلِيًّا ارتِكَازُ الطَّلَبِ على مُقَابَلَةٍ أُخرَى، تُمَثِّلُهَا صُورَةُ المَقطَعِ الآتي: (ما قَدَّمتُ وَما أَخَّرتُ، وما أَعلَنتُ وَما أَسرَرتُ)، وهو مسارٌ يُحَقِّقُ لِلعَبدِ سِيرَةً مَبنِيَّةً على طَلَبِ غُفرَانِ المَاضِي وَصونِ المُستَقبَلِ في إِطارٍ غَيبِيٍّ لا يُحِيطُ بِهِ إِلَّا اللهُ تعالى، وفي هذا السِّيَاقِ يَحضُرُ التَّقَابُلُ الخِطَابِيُّ، لِيكُونَ وسِيلَةً تَزوِيقِيَّةً مُرتَبِطَةً بِنسقٍ خفِيٍّ مُتَّصِلٍ بِالخَالِقِ، مِمَّا جعَل السَّرائِر في قَالِبِها الذَّاتِيِّ تُعنَى بِالتَّضادِّ، وبِما يُحَقِّقُهُ مِنْ مَغزًى إِقنَاعِيٍّ لِما سَيَئُولُ إِلَيهِ حالُ الدَّاعِي/ المُتَلَقِّي الثَّانِي في تطَوُّرِ حياتِهِ في المُستَقبَلِ.

وقَد لا يُكتَفَى بِهذا الحَدِّ، بَل يُطلَبُ المُبَارَكَةُ في سِيَاقٍ آخر لِمَا قَدَّمَ الإِنسَانُ وما أَخَّرَ؛ لِأَنَّهُ في الأَحوَالِ المُتَقَدِّمَةِ كُلِّها يُلَازِمُهُ القَلَقُ فِيما سَيَئُولُ إِلَيهِ، وهذا المَعنَى يُمَثِّلُهُ مُرسِلُ الدُّعَاءِ حِينَ يَقُولُ: «وَصَدِّق قَولِي وفِعَالِي، وَبَارِك لِي في أَهلِي وَوَلَدِي وَمالِي، وما قَدَّمتُ وما أَخَّرتُ، وما أَغفَلتُ وما تَعَمَّدتُ، وما تَوَانَيتُ وما أَعلَنتُ وما أَسرَرتُ، فَاغفِرهُ لِي يا أَرحَمَ الرَّاحِمِينَ»(٤٤)، فيستَمِرُّ الدُّعَاءُ في بيانِ المُقَابَلَةِ بَينَ المَعَانِي المُتضادَّةِ، مِثلَ: (الجمِيلِ والقَبِيحِ)، وما يُؤَثِّثُهُ هذا التَّصَوُّرُ مِنْ مَقُوِّمَاتٍ لِلذَّاتِ لِلعَيشِ في رِحَابِ القُربِ مع الخَالِقِ العَظِيمِ، ولِذلِك قَالَ: «يَا مَنْ أَظهَرَ الجَمِيلَ وَسَتَرَ القَبِيحَ، يَا مَنْ لم يَهتِكِ السِّترَ، ولَم يَأْخُذ بِالجَرِيرَةِ، يا عَظِيمَ العَفوِ، يَا حَسَنَ التَّجَاوُزِ، يا وَاسِعَ المَغفِرَةِ»(٤٥)، ثُمَّ جَاءَ الخِطَابُ لِيُتَرجِمَ المُعطَى الثَّانِي مِنَ الدُّعَاءِ وما يَتَحَرَّرُ

مِنهُ، وهو نَتِيجَةٌ مُؤَجَّلَةٌ لِكُلِّ أَضرُبِ الدُّعاء، لِبَيانِ فاعِلِيَّتِهِ فيما توافَرَ مِنْ مُقَابَلَةٍ أَكَّدَتْ حُضُورَ الإيجازِ في هذِهِ المَلفُوظَاتِ: «اللهُمَّ إِنَّ عَفوَكَ عَنْ ذَنبِي، وَتَجَاوُزَكَ عَنْ خَطِيئَتِي، وَصَفْحَكَ عَنْ ظُلْمِي، وَسَتْرَكَ عَلَيَّ قَبِيحَ عَمَلِي، وَحِلمَكَ عَنْ كَبِيرِ جُرمِي، عِندَ ما كانَ مِنْ خَطَايَ وعمدِي، أَطمَعَنِي في أَن أَسأَلَكَ ما لا أَستَوجِبُهُ»(٤٦).

وما قدَّمته صُوَرُ الخطابِ يَتبيَّنُ منهُ «أنَّ المُتلَقِّي الوحيدَ لهذه الرِّسالةِ بهذا المضمونِ هو اللهُ – عزَّ وجلَّ –، فلا مُتلَقِّيَ غيرُه يتوجَّهُ إليهِ الدَّاعي، فيُمكن أنْ نلمَسَ أثرَ المُتلَقِّي الأوَّل بحصرِ الخِطَابِ به، بهيمنتِه وعظمتِه على شعورِ عبدِه الدَّاعي، وتمكُّنه من قلبِه وجوارحِه، فصار لا يرى في الكونِ غيرَه أحدًا يدعوه ويرجوه، وهو الَّذي يُغني داعيَه، ويكفي راجيَه، أمّا المُتلَقِّي الثَّاني فيُوجَّهُ الخطابُ إليهِ لغرضِ التَّعليم، وهذهِ الغايةُ نَستخلِصُها من أثرِ المُتلَقِّي الثَّاني في التَّحليلِ، وفي كلِّ ما مضى نُلحظ أثرَ المُتلَقِّي في توجيهِ الغايةِ من الخِطابِ»(٤٧).

ويَحمِل المُتلَقِّي في كلِّ وجوهِ الدُّعاء السِّمةَ المركزيّة، فهو الوسيطُ الذي يُحدِّد طبيعةَ العلاقةِ بَيْنَ المَلفوظِ والأثرِ المُترتِّبِ على ما سيؤولُ إليهِ من نتائج واقعيّة، فلا يُمكن تصوُّرُ أثرِ الدُّعاء إلّا إذا تمَّت المقابلةُ بَيْنَ هيئةِ الدَّاعي السَّابقةِ وما يترتَّب عليها من صورةٍ جديدة، عندئذٍ يُقاسُ الإقناعُ في التَّأثيرِ على أحوالِ الإنسانِ ومستقبلِه، حينَ يسيرُ الدُّعاءُ على وفقِ خطواتِه المأثورة.

بَلاغَةُ الإقرارِ[٤٨]:

يتحوَّل الدُّعاءُ في عُروجِ السَّالكينَ ليُعالجَ سيرةَ الإنسانِ ومستقبلَه بمنحى الإيجازِ الذي يتخلَّلُه، وهو ما يُفسِّر خوفَ الإنسانِ من عواقبِ الأمور، فيميلُ إلى طلبِ الكفايةِ من الله تعالى، ومن هذا المنطلق يتشكَّلُ وعاءُ الدُّعاء من توالي المُقدِّمات لغرضِ الفوزِ بالنَّتيجةِ التي ينتظرُها الإنسان ليقتربَ من السَّعادة، وهذا ما يجعلُ الدُّعاءَ مُتطابقًا مع حالِ الإنسانِ حين يُواجهُ مخاوفَه المُتراكمةَ كلَّ يوم، فلا سبيلَ إلاّ بطلبِ العَونِ في تخليصِهِ من الهُمومِ المختلفةِ: «اللهُمَّ فَاكفِنِي مَا أَهَمَّنِي وَمَا لَا يُهِمُّنِي وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، عَزَّ جَارُكَ وَجَلَّ ثَنَاؤُكَ وَلَا إِلَهَ غَيرُكَ»[٤٩]، فهُنا تَأتي الصُّورةُ مُتوسِّلةً بطريقةٍ تُهندسُ الدُّعاءَ لتحقيقِ الغايةِ بوسيلةٍ طلبيّة، يكونُ الدُّعاءُ فيها قد لامَسَ جوهرَ الذَّاتِ في إقرارِها بطلبِ الكفايةِ ممَّا خَفِيَ من المسائلِ الضَّروريّة التي يُحيطُ اللهُ بعلمِها.

وتبدو سِيرةُ العَبدِ مُمتحَنةً، فسعيُها إلى الكمالِ مشروعٌ، لكنَّها تَبقى في مُواجهةٍ مُحتدمةٍ مع نوازعِ النَّفسِ التي تَفرِضُ عليها المُخاتلةَ في سلوكِها مَعَ المجتمع، وبَيْنَ هذهِ الصُّوَر تقفُ الذَّاتُ مُتعاليةً تبتعِدُ عن الإقرارِ، وأخرى مُعترِفةٌ بتسجيلِ ما يقتَرِفُ من المَعاصي، وهذا ما يجعله يقول: «ورَأيتَنِي عَلَى المَعاصِيِّ سَيِّدي فلَم تَمنَعنِي ولَمْ تَهتِك سِترِي»[٥٠]، وهذا الإقرارُ يُؤكِّد مضمونَ قولهِ تَعالى: ﴿أَوَ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾[٥١]، وهُو العالمُ بكُلِّ حيثيات ذلكَ، وفي جَميعِ الصُّورِ.

إنَّ خطابَ الدُّعاء يكشِفُ «الأنا» المُذنِبة، ويجعلُها نادِمةً لِمَا أصابَها من وَضَرِ الخطايا، فهِي تَعتَرِفُ باقترافِ ذُنُوبٍ هَائلَةٍ: «أنا حمّالُ الخَطايا سِرًّا وعلانيةً»[٥٢]؛ فالاعتِرافُ في خِطابِ الدُّعاء يُعطي طاقةً تُخفِّفُ من وَقعِ الذُّنُوبِ، وبِهَا يُمكِن لِلإنسانِ أنْ يُعوِّضَ هفواتِه بمحْوِهَا من كتاب: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۚ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[٥٣]؛ وهذا المَعنى يُصوِّرُ العبدَ الذَّليلَ في مواجهةِ غفّارِ الذُّنوبِ وستّارِ العُيوب، وعندئذٍ يصلُ النَّدمُ غايتَه، ولذلك يقول: "إلهِي أنا الّذِي بَارَزتُكَ بِسَيِّئَاتِي وَكَشَفتُ قِنَاعِي وَلَمْ يَكُنْ بَيْنِي وَبَيْنَكَ سِتْرٌ يُوارِينِي وَلَا حِجَابٌ يَحجُبُنِي»[٥٤]، إذ يُؤشِّرُ المشهدُ حالةَ الإنسانِ وهو يرتكِبُ المُحرَّماتِ مع عِلمِه بوجودِ الرَّقيبِ الذي يُتابِعُه، وهذا ضربٌ من التَّعدِّي وإنكارِ المعرُوف، والحالُ أشبَهُ بمَن يهبُ لكَ قوّةً بعينِها فتُوظِّفُها لمُعارَضتِه وإغضابِه.

إنَّ الإنسانَ يَسعى إلى مُساعَدةِ النَّاسِ وكَسْبِ محبَّتِهم، فمَحبَّةُ الله تعالى هي نتيجةٌ طبيعيَّةٌ لمودَّةِ النَّاسِ، ولهذا نَجدُ الدُّعاءَ يَهتمُّ بحُسنِ السِّيرة بوساطةِ المعنى المُتَمَثِّل في قولِ الدَّعاء: «اللهُمَّ أَلْبِسْنِي سِتْرَكَ وَنَضِّرْ وَجْهِي بِنُورِكَ، وَأَلْقِ عَلَيَّ مَحَبَّتَكَ، وَبَلِّغْنِي رِضوانَكَ، وَشَرَفَ كَرامَتِكَ، وَجَسِيمَ عَطَائِكَ، وَاقْسِمْ لِي مِنْ خَيْرِ أَنْتَ مُعْطِيهِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ فِي الدُّنيا وَالآخِرَةِ، وَأَلْبِسْنِي مَعَ ذَلِكَ عَافِيَتَكَ، يَا مَوْضِعَ كُلِّ شَكْوَى، وَيَا شَاهِدَ كُلِّ نَجْوَى»[٥٥]، فصُورةُ الدُّعاءِ بهيئةِ الطَّلبِ تجعلُهُ آليَّةَ اعترافٍ يُمارِسُها المُخاطَبُ لتمثُّلِ عوالِمِه في استعادةِ حياتِه السَّابقة، والعبدُ بهذا الحوار لا يُمكِنه أنْ يَمحَقَ شيئًا من سيرتِه، بل يجعلُ من تلاقي الدُّعاء الاعترافي مع السِّيرة الذاتيّة قدرةً

على تغييرِ حالتِهِ السَّابقةِ بوساطةِ تشخيصِ الأخطاءِ وعلاجِها، وتنبيهِ النَّاسِ إلى تجنُّبِ الوقوعِ فيها.

وبِهذَا المَعطى تجلَّت سيرةٌ أقرَّت بِحيثُ يتجنَّبُ فيها العَبدُ السُّقوطَ وافتضاحَ أمرِه، ممّا يجعلُ السِّيرةَ مُتاحةً للنّاسِ أجمعين؛ في الرِّضا والسَّخط، والتَّواضعِ والقَصد، ثُمَّ تَركِ التَّعدِّي على الآخرينَ قولًا أو فعلًا، قليلًا كان أو كثيرًا، وكلُّها عناصرُ مُؤدِّيةٌ إلى نظافةِ السِّيرة، وهو ما يَسعى إليهِ العَبْدُ، فيطلُبُ من الله تعالى المَدَد «فإنَّ الدُّعاءَ يَحمِلُ قِيَمًا عقديَّةً استبطانيّةً ذاتَ تلاحمٍ سُلوكيّ؛ سواءٌ جاء بأسلوبٍ طلبيٍّ إرشاديٍّ، أو بصورةٍ تشخيصيّةٍ حركيّة، أو بما كان إخباريًّا توثيقيًّا»[٥٦].

فيكونُ الإقرارُ بَلاغةً بِما يُؤثِّثُه من إبرازِ صُورتِه على النَّحوِ الذي يُقنِعُ الدَّاعي بأنَّ فِعلَ الإقرارِ وسيلةٌ للتَّطهيرِ واستئنافِ العملِ الصالح، فيتحوَّلُ الإقناعُ إلى طاقةٍ إيجابيّةٍ يُؤطِّرُها الدُّعاءُ ليُغيِّرَ الإنسانَ سُلوكَه وحياتَه نحو الكَمالِ المَنشودِ.

بَلاغَةُ التَّشخِيصِ:

تَبرُزُ سِمَةُ التَّشخيصِ بِجَلاءٍ في دُعاءِ وَداعِ شَهرِ رَمَضانَ المُبارَك، فالمَوسِمُ أَشرَفَ على الانتهاءِ، وهذا يُشِيعُ الألَمَ في قُلوبِ مُحبِّيه، فكانَت لِحَسرَةِ الفِراقِ دَواعِيها بِوَساطَةِ مَنطِقِ الوَداع: «اللهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَاجبُر مُصِيبَتَنا بِشَهرِنا»[٥٧]، فهو مُصابٌ جَلَلٌ لا تَملِكُ النَّفسُ قِبالَهُ إلّا التَّحَسُّرَ وإظهارَ الحُزنِ لانقضاءِ أيّامِه: «فَإِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ عَلَى فِرَاقِ شَهرِ رَمَضانَ، شَهرِ الصِّيَامِ وَشَهرِ القِيَامِ وَشَهرِ القُرآنِ

وَغُرَرِ الأيّامِ، فَيَا شَهرَنا غَيرَ مُوَدَّعٍ وَدَّعناكَ لا بِمَلَلٍ، صُمنَاكَ وَلا مَقلِيًّا، فَارَقتَنا، فَلَوْ كانَ يُقالُ: جَزَى اللهُ شَهرًا، لَقُلنَا: جَزاكَ اللهُ يا شَهرَ رَمَضانَ عنّا خَيرًا، فَفيكَ عُتِقَتِ الفُروجُ وَالنُّفوسُ، وَصَحَّتِ النِّيّاتُ وَالقُلوبُ، وَكُنتَ خَيرَ زائِرٍ مَحبُوبٍ، فَلا جَعَلَهُ اللهُ آخِرَ العَهدِ مِنكَ وَلا بِكَ، وَخَتَمَ لَنا فيكَ بِخَيرٍ، وَتَقَبَّلَ مِنَّا بِرَحمَةٍ، إِنَّهُ هُوَ أَرحَمُ الرَّاحِمِينَ»(٥٨).

فالملفوظاتُ المُستعارةُ تُبَيِّنُ عَلاقةَ المُشابهةِ في كينونةِ الشَّهرِ وما يُقابِلُهُ مِن مَكارِمِ أَخلاقٍ لِرُفقَةٍ تَستُرُ النَّفسَ بِوُجودِهم، لكنَّها تَحزَنُ إِن عَزَموا على الرَّحيلِ، ورُبَّما تَقلَقُ قَبلَها إن سَمِعَت بِنِيَّتِهم مُفارَقَتَك: «كُنتَ خَيرَ زائِرٍ»، فَتَدُلُّ على مُلازَمَةِ الخَيرِ لِهَذا الشَّهرِ دونَ صِفاتٍ أُخرى غيرِ مَحمودَة، غيرَ أنَّ الخِطابَ يُفصِحُ عن البُعدِ الاستعاريِّ بِعِبارَةِ: «فَلَوْ كانَ يُقالُ: جَزَى اللهُ شَهرًا، لَقُلنَا: جَزاكَ اللهُ يا شَهرَ رَمَضانَ عنّا خَيرًا»، فَتكونُ عَلامةُ الشَّرطِ غيرِ الجازِمِ مانِعَةً مِن إيرادِ المَعنى الحَقيقيِّ، فَتَبَيَّنَ أنَّ المُرادَ هو الشَّهرُ دونَ الإنسانِ، فالقَرِينَةُ كَشَفَت عن صُورَةِ المَعنى المُستَوحى مِن التَّشخيصِ.

وهذا الأُسلوبُ مَستَعمَلٌ في الخِطابِ القُرآنيِّ حينَ يَستَنطِقُ أَشياءَ الطَّبيعَةِ، ويَجعَلُها شاخِصَةً للعِيانِ بِوَساطَةِ خَلعِ الحَياةِ وتَجسيمِها على ما لَيسَ مِن شَأنِهِ الحَياةُ، المَجسَّمَةُ مِن الأَشياءِ وَالمَعاني وَالحالاتِ النَّفسِيَّة، وهو أُسلوبٌ يَرتَفِعُ بوساطَةِ الصُّوَرِ وَالمَشاهِدِ الَّتي يَعرِضُها إلى حَدِّ الإعجازِ، بِما يَبُثُّ فيها مِن عُنصر الحَياةِ(٥٩)، فأنسَنَةُ الشَّهرِ على نَحوٍ يَجعَلُه صاحِبَ بَهجَةٍ وَسَعادَةٍ يُطلَبُ مِنهُ المكوثُ أَكثرَ لِما

فيهِ مِن سِماتِ الأُنسِ وَالاطمِئنانِ، وهذهِ العَلاقَةُ الطَّيِّبَةُ يُصدِّقُها ما يَذكُرُهُ الدُّعاء: «وَقَد أَقَامَ فِينَا هَذا الشَّهْرُ مَقامَ حَمدٍ، وَصَحِبَنا صُحبَةَ السُّرورِ، وَأَربَحَنا أَفضَلَ أَرباحِ العالَمِين، ثُمَّ قَدْ فارَقَنا عِندَ تَمامِ وَقتِهِ، وَانقِطاعِ مُدَّتِهِ، وَوَفاءِ عَدَدِهِ، فَنَحنُ مُوَدِّعُوهُ وَداعَ مَن عَزَّ فِراقُهُ عَلَينا، وَغَمَّنا وَأوحَشَنا انصِرافُهُ عنّا، وَلَزِمَنا لَهُ الذِّمامُ المَحفوظُ، وَالحُرمَةُ المَرعِيَّةُ، وَالحَقُّ المَقضِيُّ»[٦٠]، فاستِعمالُ الدُّعاءِ لِلتَّشخيصِ يُدخِلُهُ في إطَارِ تَصويرِ أَهمِّيَّةِ الشَّهرِ فيما يُوَفِّرُهُ لِلصّائِمينَ فيهِ مِن جَزيلِ العَطايا: «وَصَحِبَنا صُحبَةَ السُّرورِ وَأَربَحَنا أَفضَلَ أَرباحِ العالَمِين»، وهذا مُؤشِّرٌ على صَوغِ خِطابِ الدُّعاءِ بِطَريقَةٍ تُشعِرُكَ بِقَبولِ الأَعمالِ فيهِ.

إنَّ التَّسليمَ على الشَّهرِ بهذا اللَّونِ مِنَ الجُملِ المُتَناوِبَةِ يَحمِلُ صُورَتَينِ:

الأُولى: تُوحي بالاستِقبالِ الَّذي يَتَجَلّى في حالاتٍ سُلوكيَّةٍ تَتَمَثَّلُ في مُطلَقِ السَّلامِ وإلقاءِ التَّحيَّة، الأُخرى: تَحمِلُ التَّحَسُّرَ على الفِراقِ، فيتَأَكَّدُ الفِراقُ بِسِياقٍ مَنطِقيٍّ مُكثَّفٍ عِندَما يُودَّعُ بِهِ على النَّحوِ الآتي: «فَنَحنُ قَائِلُونَ: السَّلامُ عَلَيْكَ يَا شَهْرَ اللهِ الأَكبَرَ، وَيَا عِيدَ أَولِيائِهِ الأَعظَمَ، السَّلامُ عَلَيْكَ يَا أَكرَمَ مَصحُوبٍ مِنَ الأوقاتِ، وَيَا خَيرَ شَهرٍ في الأَيّامِ وَالسّاعاتِ، السَّلامُ عَلَيْكَ مِن شَهرٍ قَرُبَتْ فيهِ الأَمثالُ وَنُشِرَتْ فيهِ الأَعمالُ، السَّلامُ عَلَيْكَ مِن قَرينٍ جَلَّ قَدرُهُ مَوجودًا، وَأَفجَعَ فِراقُهُ مَفقودًا، وَمَرجُوٍّ آلَمَ فِراقُهُ، السَّلامُ عَلَيْكَ مِن أَليفٍ أَنسَ مُقبِلًا فَسَرَّ، وَأَوحَشَ مُنقَضِيًا فَمَضَى، السَّلامُ عَلَيْكَ مِن مُجاوِرٍ رَقَّتْ فيهِ القُلوبُ وَقَلَّتْ فيهِ الذُّنوبُ، السَّلامُ عَلَيْكَ مِن

ناصِرٍ أَعانَ عَلَى الشَّيطانِ، وَصاحِبٍ سَهَّلَ سُبُلَ الإِحسانِ»[٦١]، وقد تَواردَت هذه العِباراتُ المُؤكِّدَةُ بوداعِهِ مَشفوعَةً بِوَقفَاتٍ سَعِدَت بها النَّفسُ، في أُسلوبٍ استِعاريٍّ يُعلِّقُ الأشياءَ غيرَ الحَيَّةِ بالأشياءِ الحَيَّةِ بوساطَةِ المُماثَلَةِ بَينَ مَلفوظَينِ[٦٢]، فتكرارُ جُملَةِ «السَّلامُ عَلَيْكَ» قاصِدًا استِدعاءَ صِفاتٍ طالَت مَعَها المُخالَطَةُ فتَعَلَّقَت بها النُّفوسُ، وقد أَسهَمَت بَلاغَةُ التَّشخيصِ في خِطابِ وَداعِ شَهرِ رَمَضانَ «في خَلعِ الحَياةِ على المَوادِّ الجامِدَةِ، وَالظَّواهِرِ الطَّبيعيَّةِ، وَالانفِعالاتِ الوجدانيَّةِ، هذِهِ الحَياةِ الَّتي قد تَرتَقِي فَتُصبِحَ حَياةً إنسانيَّةً، تَشمَلُ المَوادَّ وَالظَّواهِرَ وَالانفِعالاتِ، وَتَهَبُ لِهذِهِ الأَشياءِ كُلِّها عَواطِفَ آدَميَّةً، وَخَلقاتٍ إنسانيَّةً، تُشارِكُ بها الآدَميِّينَ، وَتَأخُذُ مِنهُم وَتُعطِي، وَتَتَبَدَّى لَهُم في شَتّى الملابَساتِ، وَتَجعَلُهُم يُحِسّونَ الحَياةَ في كُلِّ شَيءٍ تَقَعُ علَيهِ العَينُ، أَو يَتَلَبَّسُ بِهِ الحِسُّ، فيَأنَسونَ بِهذَا الوُجودِ»[٦٣]، فَهُوَ حُضورٌ بَهِيٌّ راقٍ لِلنُّفوسِ، ولَمّا كانَ شَهرُ رَمَضانَ خاضِعًا لِنَواميسِ الطَّبيعَةِ، فَقَد تَطابَقَ مَع مَعنى التَّشخيصِ، وَهُوَ يُمْنِحُ العَواطِفَ الآدَمِيَّةَ: حُسنَ المُصاحَبَةِ، وَالسَّلامَ، وَحُزنَ الفِراقِ، وَطِيبَ المُخالَطَةِ، فَسَعَى أُسلوبُ التَّشخيصِ لِتَنظيمِ مَراتِبِ المَعنى، وَأَسهَمَ في التَّوصيلِ وَالتَّأثيرِ في المُتَلَقِّي.

بَلاغَةُ الوَظِيفَةِ الوِقائيَّةِ:

تَسعَى هذِه الوَظيفةُ في خِطابِ الدُّعاءِ إلى بَيَانِ ما يُحِيطُ بالنَّصِّ مِن وَظائفَ: «الإبلاغِ، والتَّأثيرِ، وتَحريكِ المَشاعِرِ»[٦٤]، إذ يَتَّسِمُ الدُّعاءُ بحَشْدٍ مِن الوَظائفِ تُمَرَّرُ

بوساطةِ الأدواتِ لِنلحَظَ قوَّتَها ومَدى تأثيرِها، وحتَّى «نَفهَمَ الأداةَ يَجِبُ أن نَعرِفَ أوَّلًا ماذا كانت وَظيفتُها، وما هو الدَّورُ الذي نَهَضَت به، فهَذا السَّبيلُ سَيُجَلِّي لنا كثيرًا مِن أسرارِ الخِطابِ، وسَيُفْصِحُ عن طريقةِ تَشكيلِه، وأسبابِ وُجودِه»(٦٥)، حَيثُ يُبَيِّنُه الدُّعاءُ في وَظائفِه، فتَظهَرُ الوَظيفةُ النَّفعيَّةُ الَّتي تَحصُدُ الطَّلبَ، والشَّكوى، والاطمئنانَ عند مُمارسَةِ الدُّعاءِ، وتتجلَّى الوَظيفةُ التقرُّبيَّةُ بصُوَرٍ مُختلِفةٍ عِندَما تَسيرُ في مُعالجتِها بالاعترافِ أو بالتَّوجُّهِ إلى مَضمونِ الاعترافِ، وما يَسوقُه مِن مَعانٍ مُتَحصِّلةٍ مِن السِّياقِ، وقد تَتَضَمَّنُ الوظيفةَ الإرشاديَّةَ، ثُمَّ التَّذكيريَّةَ، وكذلك التَّعليميَّةَ(٦٦)، ومِن الأخيرةِ نَرى ثَمَّةَ طريقةً لِمُخاطبةِ الذَّاتِ والدُّنوِّ منها بوساطةِ الملفوظاتِ البليغةِ، وعِندئذٍ تَحومُ الوَظيفةُ التَّعبُّديَّةُ بوساطةِ الدُّعاءِ في تَحقيقِ مقاصِدَ مُتعلِّقةٍ ببنيةِ الدُّعاءِ، وما يَرجوه الدَّاعي مِن خِطابِه، ولَمَّا كانت ثَمَّةَ عواملُ مُجدِيةٌ تُهَندِسُ نِطاقَ الدُّعاءِ، حيثُ تَسمو الذَّاتُ نحوَ طريقِ التَّأدُّبِ، مُتَّخِذَةً مِن الدُّعاءِ وسيلةً للعُروجِ وغايةً يَسعَى فيها العَبدُ لِنَيلِ «التَّقرُّبِ مِنَ المُتلَقِّي الأوَّلِ، ويُوظِّفُ الدَّاعي آليَّاتٍ لُغويَّةً يُستشفُّ منها الخُضوعُ والإقرارُ بالفَضلِ للمُتلَقِّي الأوَّلِ، والضَّعفُ أمامَه، وهي وَظيفةٌ تَكادُ تَنحَصِرُ في الخِطابِ الدُّعائيِّ، أو تكونُ مِنَ الوَظائفِ التي تَبرُزُ فيه، وتَقِلُّ في غيرِه حَدَّ التَّلاشي، ولا سيَّما في الخِطاباتِ التي يَتَساوَى فيها المُرسِلُ والمُتلَقِّي في المَنزِلةِ الاجتماعيَّةِ»(٦٧)، ولَمَّا كانت مَظانُّ الدُّعاءِ المُختارِ داخِلةً في السَّرائرِ، احتاجَت وَظائفَ تُناسِبُ هذا السِّياقَ، تُكَلِّلُ الأدعيةُ بِهالةِ القَبولِ في المُستوى الفَرديِّ، لِتَبرُزَ القاعدةُ الجَماليَّةُ لوَظيفةِ الدُّعاءِ، فيَصيرُ الدُّعاءُ إبداعًا مَعنيًّا بِخَلقِ التَّواشُجِ المَطلوبِ

في المُجتَمعِ بينَ الفَردِ وبينَ الآخرين، هو بِذلك عُنصرٌ تَأليفيٌّ يَربِطُ الفَردَ بما حَولَه في العالَمِ بمُجمَلِه؛ بالنَّاسِ، للأحياءِ والأمواتِ[٦٨].

إنَّ الوَظيفةَ الوِقائيَّةَ حاضِرةٌ في مَسارِ السَّريرةِ، فالعَبدُ يُحاولُ التقرُّبَ إلى الله تعالى ويَطلُبُ الوِقايةَ مِمَّا يَخشاهُ في الآخرةِ، فيَتوجَّهُ مُرسِلُ الخِطابِ بِطلبِ الوِقايةِ بوساطةِ النَّصِّ الآتي: «وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الذُّنوبِ الَّتي تَكشِفُ الغِطاءَ»[٦٩]، وهو هاجِسٌ يُراوِدُ الإنسانَ في يَومِه، فيُحاوِلُ البَقاءَ في نِطاقِ الوَظيفةِ المُمتثِلةِ لِسياقِ القُربِ الإلهيِّ، ومَا تَنشُدُه الذَّاتُ أنَّ مَراحِلَ الوِقايةِ لا تُعالِجُ مَفهومَ السِّترِ فَحسْب، بل تَسعَى لِتَجنُّبِ الابتلاءِ وما يَترتَّبُ عليه مِن أَثَرٍ غيرِ مَحمودٍ، وهذا المَضمونُ يَردُ في دُعائِه (عليه السلام): «وَأَنْ تَبتَلِيَني بِبَلاءٍ لا طاقَةَ لي بِه، أو تُسَلِّطَ عَلَيَّ طاغيًا، أو تَتهَتَّكَ لي سِترًا، أو تُبدِيَ لي عَورةً، أو تُحاسِبَني يَومَ القِيامَةِ مُقاصًّا أحوَجَ ما أكُونُ إلى عَفوِكَ وتَجاوُزِكَ عنِّي»[٧٠]؛ فالذَّاتُ تَستشعِرُ ضَعفَها أمامَ مُغرَياتِ الحياةِ، فتَشُدُّ الرِّحالَ دائمًا لِلوُقوفِ بِوَجهِ تَعقيدِها. ولهذِه الوَظيفةِ وَقعٌ كبيرٌ على النَّفسِ؛ إذ تُحاوِلُ الذَّاتُ شَقَّ خِطابٍ دُعائيٍّ يَستغرِقُ الوَظيفةَ الوِقائيَّةَ بما يُؤثِّثُه مِن نَسَقٍ خِطابيٍّ يَسمو إلى تَقديمِ الذَّاتِ بِمُقتضى الحالِ، كما وَرَدَ: «وَأَنْ تَبتَلِيَني بِبَلاءٍ لا طاقَةَ لي بِه، أو تُسَلِّطَ عَلَيَّ طاغيًا، أو تَتهَتَّكَ لي سِترًا، أو تُبدِيَ لي عَورةً، أو تُحاسِبَني يَومَ القِيامَةِ مُناقِشًا أحوَجَ ما أكُونُ إلى عَفوِكَ وتَجاوُزِكَ عنِّي فيما سَلَفَ»[٧١]، فجَعَلَ نَفاذَ الطَّاقةِ وتَسليطَ الطاغي بِمَنزلةِ هَتكِ السِّترِ. ولعلَّ الذَّاتَ تَستهلِكُ قوَّتَها في مُقارعةِ الطاغي الذي يَجعَلُ الإنسانَ مَشدودَ الذِّهنِ لِمُواجهةِ تلك القوَّةِ المُعاديةِ بكُلِّ الوسائِلِ، فيكونُ الطاغي بِمَنزلةِ

هَتكِ السِّترِ، فالوَظيفةُ الوِقائيَّةُ قد عَمِلَت ضِمنَ حُدودِ طَبيعةِ النِّطاقِ مِن أجلِ مُعالجَةِ أصْلِ الوَظيفةِ، والمُتمثِّلةِ في تَجنُّبِ إبداءِ العَورةِ، أي الفَضحِ على رُؤوسِ الأشهادِ يَومَ الحِسابِ.

وما يُلازِمُ هذِه الوَظيفةَ: الخَشيةُ الدَّائِمَةُ مِن عِبءِ الافتِضاحِ وزَوالِ الحالِ الواقِي، الباقي ما دَنا العَبدُ مِن رَبِّه، فنَجِدُ الدُّعاءَ يُبَيِّنُ هذا المَعنَى: «وَتَرْحَمَ مَسْكَنَتِي، وَتَتَجاوَزَ عَمَّا أَحصَيتَهُ عَلَيَّ، وَخَفِيَ عَن خَلقِكَ وَسَتَرتَهُ عَلَيَّ مَنًّا مِنكَ، وَتُسَلِّمَنِي مِن شَينِهِ وَفَضيحَتِهِ وَعارِهِ فِي عاجِلِ الدُّنيا، فَلَكَ الحَمدُ عَلَى ذلِكَ وَعَلَى كُلِّ حالٍ، وَأَسأَلُكَ يا رَبِّ أَن تُصَلِّيَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ، وَتُتِمَّ عَلَيَّ نِعمَتَكَ بِسَترِ ذلِكَ فِي الآخِرَةِ، وَتُسَلِّمَنِي مِن فَضيحَتِهِ وَعارِهِ بِمَنِّكَ وَإِحسانِكَ يا أرحمَ الرَّاحِمِينَ»[٧٢]، فالأثَرُ الذي يُخلِّفُه الذَّنبُ في الدُّنيا لا يُساوي شيئًا عندَ مُقارنتِه بعَذابِ الآخرةِ، غيرَ أنَّ الإنسانَ يَتحاشاهُ بكُلِّ الوَسائِلِ، ويَجِدُ في العُروجِ إلى اللهِ بالدُّعاءِ الخالصِ سبيلَه للخَلاصِ ممَّا يُلاقيه، وهذه السِّماتُ تُمنَحُ الخِطابَ الدُّعائيَّ بَلاغةً مُتَعَدِّيةً تَنفتِحُ على الخَارجِ لِتَحقيقِ مَقاصِدَ دِينيَّةٍ واجتِماعيَّةٍ وسِياسيَّةٍ في المُجتَمعِ، وهي تَكشِفُ عن أنَّ الدُّعاءَ كانَ واجِهَةً أُخرَى مِن واجِهاتِ تَنفيذِ مَهمَّةِ تَوصيلِ الرِّسالةِ الإسلاميَّةِ، والاحتجاجِ لها، وتَجسيدِها عَبرَ مُستوياتِ اللُّغةِ وتَوظيفاتِها الجَماليَّةِ[٧٣]، المُؤَيَّدةُ بجَماليَّةِ التَّكرارِ وما يَطويهِ مِن تأثيرٍ في المُتلَقِّي، كما في قولِ الدَّاعي: «إِنَّكَ أَنتَ العاصِمُ المانِعُ، والدَّافِعُ الواقِي مِن ذلِكَ كُلِّه»[٧٤]، ولهذِه الوَظيفةِ أَثرُها في تَحويلِ السِّرِّ إلى مَلجَإٍ يَستَتِرُ الإنسانُ فيهِ ممَّا يُلاقيه، مُعتَمِدًا على تَوفيقِ اللهِ تعالى وتسديدِه، كما وَرَدَ في الدُّعاءِ: «اللهُمَّ صَلِّ على مُحَمَّدٍ

وَآلِه، وَأَنزِلْ عَلَيَّ مِنكَ سَكينَةً، وَأَلبِسْنِي دِرعَكَ الحَصينَةَ، وَاحفَظْنِي بِسِترِكَ الواقِي، وَجَلِّلنِي عافِيَتَكَ النَّافِعَةَ، وَصَدِّقْ قَولِي وَفِعالِي»(٧٥).

فتمثيلُ السِّترِ بهذه الدِّقَّةِ والفَاعِلِيَّةِ يُمَثِّلُ غايةَ البَلاغةِ في تَمامِ آلةِ المَعنى الَّتي رَشَحَتِ الوَظِيفَةَ الوِقَائِيَّةَ الَّتي يَسعَى الإنسانُ لِتَحصِيلِها بِوَاسِطَةِ مُنَاجَاتِهِ المُختَلِفَةِ مع اللهِ تَعالى، فَتَحصِيلُ الوِقَايَةِ مُقَيَّدٌ بِسِياقٍ يَتَعَيَّنُ الِالتِزَامُ بِهِ، يُمَثِّلُهُ المَقطَعُ الآتي: (صَدِّقْ قَولِي وَفِعَالِي)، فلا وِقَايَةَ مِن دُونِ مُطَابَقَةِ القَولِ لِلفِعلِ، وَالعَزمِ وَالتَّركِ فِتنَةٌ تُصِيبُ الإنسانَ، مِمَّا يَجعَلُهُ مَكشُوفًا؛ لِأَنَّهُ أَخَلَّ بِعَقدِ الوِقَايَةِ، فَجاءَتِ الوَظِيفَةُ الوِقَائِيَّةُ مُبَيِّنَةً حَالَ الإنسانِ وَاقتِنَاعَهُ بِالِالتِزَامِ بِوَاسِطَةِ شُرُوطِ تَحصِيلِ الحِمَايَةِ بِالِابتِعَادِ عَنِ الخَطَايا، ولكِنَّ الإنسانَ تَخَلَّفَ عَنْ وَعدِهِ، فهذِهِ السِّمَةُ وَمَا تَبرُزُ مِنهَا مِن نَتَائِجَ تُؤَكِّدُ على قُدرَةِ الدُّعَاءِ على مُمارَسَةِ وظائِفَ مُختَلِفَةٍ تَبَعًا لِتَفكِيرِ وثَقَافَةِ الإنسانِ وَوَعيِهِ، مَا يُؤَشِّرُ تَفَاوُتَ فَاعِلِيَّةِ الوَظِيفَةِ بَيْنَ أَبنَاءِ المُجتَمَعِ؛ لِاختِلَافِ إِيمانِهِم، وَتَبَايُنِ مَعرِفَتِهِم، وتَنَوُّعِ أَفكَارِهِم، مِنْ أَجلِ بِنَاءِ نَفسٍ مُطمَئِنَّةٍ قَانِعَةٍ، وحيَاةٍ مُستَقِرَّةٍ بَاعِثَةٍ على حلاوَةِ المُنَاجَاةِ في مَوَاسِمَ عِبادِيَّةٍ يَجتَمِعُ فِيها النَّاسُ على المَحَبَّةِ وطَلَبِ الغُفرَانِ مِن اللهِ تَعالى.

بَلاغَةُ الِاستِشرَافِ:

لَمَّا كَانَتِ البلاغَةُ مُجَلِّيَةً لِلبُعدِ الإِقْنَاعِيِّ في الخِطَابِ، وهو مَا نَتَصَوَّرُهُ في السَّرَائِرِ الَّتِي تَتَبَدَّى بِأَلْوَانٍ تَعبِيرِيَّةٍ مُختَلِفَةٍ تُقَدِّمُ العَبدَ لِمَرَاتِبَ مُؤَثِّرَةٍ، وهو ما يَجعَلُ القِرَاءَةَ البَلاغِيَّةَ فَاحِصَةً لِمُعطَى الِاستِشرَافِ الَّذِي يَتَأَلَّفُ بِوَاسِطَةِ «الفِعلِ اللُّغَوِيِّ التَّدَاوُلِيِّ الَّذِي

يَرتَبِطُ بِمُستَقبَلِ الأَحدَاثِ والحياةِ لِلذَّاتِ، مُعتَمِدًا على مَخزُونِ التَّارِيخِ (المَاضِي)، وَمُعطَيَاتِ الواقِعِ (الحَاضِر)، لِلمَضِيِّ بِالْمُتَلَقِّي نَحوَ أُفُقِ التَّوَقُّعِ وهو (المُستَقبَلُ)»[٧٦]، وهذِهِ الأَحوَالُ يُمكِنُ أَنْ يُغَطِّيها مَضمُونُ الخِطَابِ الدُّعَائِيِّ، فَالدَّاعِي يُحَاوِلُ أَنْ يُحَسِّنَ حَاضِرهُ وَمُستَقبَلَهُ، ويَمحُو مَاضِيَهُ بِالتَّوبَةِ مِنَ الذُّنُوبِ المُتكرِّرَةِ.

إِنَّ الذَّاتَ تَبقَى فِي مُحَاوَلَةٍ مُستَمِرَّةٍ لِلتَّقَرُّبِ مِنَ اللهِ تَعالى، وَلَكِنَّهَا تَعِيشُ هَاجِسَ الخَشيَةِ وَالخَوفِ مِنْ يَومٍ تُخْتَبَرُ فِيهِ السَّرَائِرُ، مِمَّا يَجعَلُ الرُّؤيَةَ الاِستِشرَافِيَّةَ تُمَثِّلُ وَسِيلَةً عَارِفَةً بِمَا سَتَؤولُ إِلَيهِ الذَّاتُ فِي قَادِمِ الأَيَّامِ، وهذا المَعنَى يُمَثِّلُهُ الدُّعَاءُ: «يَا كَائِنًا قَبلَ كُلِّ شَيْءٍ، وَيَا كَائِنًا بَعْدَ كُلِّ شَيْءٍ، وَيَا مُكَوِّنَ كُلِّ شَيْءٍ، لَا تَفضَحنِي فَإِنَّكَ بِي عَالِمٌ، وَلَا تُعَذِّبْنِي فَإِنَّكَ عَلَيَّ قَادِرٌ»[٧٧]، فَفِعلُ الاِفتِضَاحِ هَاجِسٌ يُلَاحِقُ الإنسانَ فَيُرعِبُهُ، وَيَستَنجِدُ بِاللهِ تَعالى لِيُخَلِّصَهُ مِنْ آثَارِهِ، وَعَلَى هَذَا الأَسَاسِ جَاءَتِ الصُّورَةُ مُؤَيِّدَةً المَعنَى الاِستِشرَافِيَّ؛ لِأَنَّ العِلمَ بِالسِّرِّ الَّذِي يختَبِئُ عَنِ النَّاسِ هو نَشرٌ وإِعلَانٌ مُؤَجَّلٌ، يجعَلُ الدَّاعِي يَعِيشُ بِوَجَلٍ مُستَمِرٍّ، وأمّا الفهم فإنّهُ يأخذ المَعنى ليعالج صُورة مؤيدة لِما تريد الذَّات أن تتحاشاه وتَهرع منهُ.

ومِن مظَاهِرِ الاِستِشرَافِ ما يُبَيِّنُهُ مَعنَى الطَّلَبِ المَجَازِيِّ في المقطَعِ الآتِي: «اللهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ، وَلَقِّنَّا حَسَنَاتِنَا فِي المَمَاتِ، وَلَا تُرِنَا أَعْمَالَنَا عَلَيْنَا حَسَرَاتٍ، وَلَا تُخْزِنَا عِنْدَ قَضَائِكَ وَلَا تَفْضَحْنَا بِسَيِّئَاتِنَا يَوْمَ نَلْقَاكَ»[٧٨]، فَالنَّصُّ يَقُومُ على الاِستِشرَافِ بِوَصفِهِ وَسِيلَةً تُؤَثِّرُ في قَبُولِ الدُّعَاءِ، تَنطَوِي على بُعدٍ يَمتَزِجُ مع

المُستَقبَلِ، لِيَقُولَ مَا تَستَلهِمُهُ الذَّاتُ. وبِهَذا يَتَأَكَّدُ أَنَّ الخِطَابَ لَا يُمكِنُهُ أَنْ يَمحُو صِلَتَهُ بِالحَاضِرِ وَالمُستَقبَلِ، وَما يَنتُجُ عَنهَا مِنْ وسائِلَ تُقنِعُ الذَّاتَ بِصِنَاعَةِ نَهجٍ يُقَرِّرُ مُستَقبَلَ الإنسانِ، فَعَلَيهِ أَنْ يُؤَسِّسَ بِوَعيٍ تَامٍّ المُنتَظَرَ منهُ، وَهَذَا المَضمُونُ وَرَدَ في الدُّعَاءِ الآتِي: «وَأَسْأَلُكَ بِقُدْرَتِكَ عَلَى مَا تَشَاءُ، وَأَسْأَلُكَ بِكُلِّ شَيْءٍ أَحَاطَ بِهِ عِلْمُكَ»(٧٩)، فَعِلمُ اللهِ تَعالى يُعِينُ على تَروِيضِ النَّفسِ لِلفَوزِ بِغُفرَانِ الذُّنُوبِ وسَترِهَا في الآخِرَةِ.

وقَد يَبلُغُ الإنسانُ حالَةَ الأَمَانِ بَعدَ تَوَهُّمِهِ تَأَخُّرَ العُقُوبَةِ، لكِنَّهُ سُرعَانَ ما يَنتَبِهُ إِلى كَونِهِ في غَفلَةٍ ووَهمٍ، فَتَبدَأُ النَّفسُ بِاللَّومِ وَالخَشيَةِ وُصُولًا لِتَرجمةِ الإِسرَافِ في ارتِكَابِ المُوبِقَاتِ: «إِلَهِي وَسَيِّدِي، كَمْ لِي مِنْ ذَنبٍ بَعدَ ذَنبٍ، وَسَرَفٍ بَعدَ سَرَفٍ سَتَرتَهُ يا رَبِّ وَلَمْ تَكشِف سِترَكَ عَنِّي، بَل سَتَرتَ العَورَةَ، وَكَثُرَتْ مِنِّي الإِسَاءَةُ، وَعَظُمَ حِلمُكَ عَنِّي، حَتَّى خِفتُ أَنْ أَكُونَ مُستَدرَجًا»(٨٠).

إِنَّ هَاجِسَ العَبدِ هَذَا يَتَوَلَّدُ بِالإِحسَاسِ مِنَ الإِفرَاطِ في الذُّنُوبِ، فَيَتَوَلَّدُ الاِستِدرَاجُ مِنْ وجعِ الذَّاتِ، فَما يَترَتَّبُ مِنْ أَثَرٍ يُتَّقَى في هَيئَةٍ تَستَحِقُّ بِالتَّقَادُمِ، وَالغَفلَةُ تَجعَلُ صَاحِبَهَا «بَعِيدًا مِنْ رَحمَةِ اللهِ تَعالى، وَقَرِيبًا إِلَى العِقَابِ تَدرِيجِيًّا، وَهو الدُّنُوُّ إِلَى عَذَابِ اللهِ بِالإِمهَالِ قَلِيلًا فَقَلِيلًا»(٨١)، وقَد يَكُونُ أَبلَغَ أَثَرًا حِينَ «يُعطِي اللهُ العَبدَ كُلَّ مَا يُرِيدُهُ فِي الدُّنيَا، لِيَزدَادَ غَيًّا وَضَلَالًا وَجَهلًا وَعِنَادًا، فَيَزدَادَ كُلَّ يَومٍ بُعدًا مِنَ اللهِ تَعالى»(٨٢)، وهذا يُؤَسِّسُ لِمَا سيَؤولُ إِلَيهِ الاِستِشرَافُ في الذَّاتِ المُتَأَثِّرَةِ بِطَبِيعَةِ

تَفكِيرِهَا وَمُسْتَوَى اندِفَاعِهَا النَّفسِيِّ إِلى ما يَطوِيهِ المُستَقبَلُ مِنْ حصادِ الذُّنُوبِ، وما سَيَكُونُ عَليهِ حَالُ الإنسانِ فِي مُستَقبَلِهِ بِواسِطةِ استِقرَاءِ الماضِي، وتَجَنُّبِ هفوَاتِهِ وعقَباتِهِ، والِانتِقَالِ بِسلامٍ إِلى مُستَقبَلٍ أَلطَفَ يُحقِّقُ التَّوَازُنَ والتَّوَافُقَ النَّفسِيَّ بَيْنَ مَا يُضمِرُهُ الإنسانُ وما يَسعَى إِلى تَحقِيقِهِ.

بَلاغَةُ التَّعالُقِ الدُّعائيِّ فِي عاشُوراء:

يتطابقُ دُعاءُ الإمامِ الحُسينِ (عليه السلام) في الطُّفوفِ مع أدعيةِ الأنبياءِ عليهم السلام على أقوامِهم، ويلتقي مضمونُ الدُّعاءِ حينَ أحاطَ بِهِ الأعداءُ من كُلِّ الجهاتِ، ولم يكنْ مِنهُ إلّا أن يتَصوَّرَ الحَقيقةَ القرآنيّة الواصفةَ لمضمونِ الدُّعاءِ حيثُ رَجاحَتُه؛ لأن يكونَ سِلاحَهُ المعنويَّ في المعركةِ، فانتَضاهُ ليُشكِّلَ علامةً مُرعِبةً أدخلتِ الخوفَ في صدورِ الأعداءِ، لخشيتِهم ممّا يترتَّبُ على دُعائه من آثارٍ حينَ يلوذُ بِسلاحِ الأنبياءِ، فقدَّم الدُّعاءُ صورًا للصَبرِ حتّى النَّصرِ وإنْ كثُر الأعداءُ وقلَّ النّاصرُ: «الدُّعاءُ سِلاحُ المؤمنِ ونشيدُ العابِدِ ولذّةُ العارِفِ، إنّهُ من الأرصدةِ العظيمةِ التي بوساطتِها نواجهُ بها مشاكلَ الحَياةِ، والانتصارَ على الأزماتِ والغمومِ والمتاعبِ، وكيفَ وبهِ يُخاطَبُ المَولى، وما أعظمَ ذلك! وبهِ يتّصلُ العبدُ بالله، وهذهِ الأدعيةُ على لسانِ التّابعِ لمرضاةِ اللهِ، سيِّدِ شبابِ أهلِ الجنّةِ الإمامِ أبي عبدِ اللهِ الحُسين»(٨٣).

إنَّ الأدعيةَ الطَّفِّيَّةَ جاءت تعقيبًا على حادثةٍ وقعت، ورَتَّبت أثرًا مُعيَّنًا أو حُزنًا لِمَا جرى في واقعةِ الطفِّ، فقد سادَت أدعيةُ الإمامِ الحُسين (عليه السلام) لتُبيِّنَ موقفَه، وتُصوِّرَ

حالَ الأعداءِ في الانتقامِ منهُ، وحالَ النّاسِ وهم لا يُعنَونَ بنُصرتِه، فأسهمت الأدعيةُ المُختارةُ في إطارِها المكانيّ فولَّدت نتيجةً حتميّةً قامت على سُننٍ قرآنيّة، كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَٰلِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٨٤]؛ فالمَعنى يتّضحُ ممّا يُسهِم به الأنبياءُ (عليهم السلام) من إقامةِ الحُجَّةِ على قومِهم وصولًا إلى اليأسِ من عِنادِهم، فيتحتمُ مواجهتُهم بعَونِ اللهِ تَعالى ونصرِه، وفضحِ كيدِهم المستمرِّ المُستتر.

بِهذَا المستوى بَرَزتْ أدعيةٌ اختصَّت بواقعةِ الطفِّ تؤكِّدُ حادثةً معيَّنةً وتُبيِّنُ الكيفيّةَ التي بدتْ منه (عليه السلام) لتكون مثالًا من سيِّدِ شبابِ أهلِ الجنّة، وقدرتَه على صونِ نفسِه بالتَّوكُّلِ على اللهِ والاحتسابِ إليهِ، والدُّعاءِ على الأعداءِ بالانتقامِ على يدِ غُلامٍ ثقيف[٨٥]، فتوجَّه الإمامُ الحُسين (عليه السلام) إلى اللهِ تعالى في يومِ عاشوراءَ بدعائِه: «اللهُمَّ أمسِكْ عنهم قَطْرَ السَّماءِ، وامنعْهم بركاتِ الأرضِ، اللهُمَّ فإنْ متَّعتَهم إلى حينٍ ففرِّقْهم فِرَقًا، واجعَلْهم طَرائقَ قِدَدًا، ولا تُرضِ عنهم الوُلاةَ أبدًا؛ فإنَّهم دَعَونا لينصرونا فعَدَوا علينا فقتلونا»[٨٦]، وقد سادَ أسلوبُ الاستدراجِ في خطابِ الطفِّ بوصفِه فعلًا بلاغيًّا مؤسَّسًا على خطابٍ قرآنيٍّ يُستدعى في يومِ عاشُوراء بوساطةِ ممارسةِ الحُسين (عليه السلام) لذلك، كما بَيَّنتها مَشاهدُ الواقِعةِ.

إنَّ للاستدراجِ أثرَهُ في استخلاصِ النَّتيجةِ، فهو وليدُ فهمٍ خطابيٍّ أرساهُ الإمامُ الحُسين (عليه السلام) في مُقدِّماتِ واقعةِ الطفِّ بتوظيفِ معناه في أدعيتِه وأقوالِه المأثورة، كما في دُعائِهِ: «اللهُمَّ لا تَستدرِجني بالإحسانِ، ولا تُؤدِّبني بالبلاءِ»[٨٧]، فالإمامُ (عليه السلام) عَرَف هذا المعنى، فتأكَّد عندهُ أنَّ الاستدراجَ آليّةٌ تُؤدِّبُ العَبدَ وتعملُ على تَرويضِ ظُلمِه وطُغيانِه؛ فشعورُه بالنِّعمةِ المجرَّدةِ من شكرِ الخالقِ دليلٌ مؤكَّدٌ على استشرافِ العقوبةِ المؤجَّلة.

وطَبيعةُ مفهومِ الاستدراجِ تؤثِّر على الصُّورةِ النّهائيّةِ أو ما يُسمَّى الحُكم، وهذا يتأكَّدُ بوساطةِ قياسِ الفعلِ البَلاغيِّ الذي تَمثَّل في الإبانةِ والظُّهورِ لِما ستؤولُ إليهِ حالةٌ يُولِّدُها الاستدراجُ ليكون جزاءً لِمَا ارتَكبَ من عملٍ، غيرَ أنّ الإحساسَ بعلاماتِ الاستدراجِ يبدو واضِحًا لِمن يلتفتُ لِما يجري حولَه دون غفلةٍ وتمادٍ بالذُّنوب، فإنَّ الكيفيّةَ التي يُمكن أن يُولِّدَها الاستدراجُ تُشكِّلُ فعلًا بلاغيًّا كما تَمثَّله سورةُ الأعرافِ وسورةُ القلمِ، في قولهِ سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٨٨]، وقولهِ تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٨٩]، فالفعلُ الاستدراجيُّ المُتولِّدُ من الشاهدَين يُنتج وسيلةً يَعيها الإنسانُ الفَطِنُ، ويستفيدُ منها في مُستقبَلِه وعلاقتِه مَعَ اللهِ تعالى.

فالاِستِدرَاجُ هو عَدَمُ اكتِرَاثِ الإنسَانِ بِالاِتِّصَالِ بِاللهِ تعالى بِسَبَبِ الاِستِخفَافِ

بِالذُّنُوبِ، وَالبَقَاءِ على المَعصِيَةِ مع حِيازتِهِ سُلطَةً مَالِيَّةً تُمَكِّنُهُ مِنَ الاِستِئنَاسِ بِفِتَنِ الحيَاةِ، فَيكُونُ استِدرَاجُهُ طَرِيقَةً لِهلاكِهِ وسُقُوطِهِ، وهذا ما جعلَ سِمَةَ التَّخَلِّي عَنِ الاِلتِزَامِ المُبرَمِ سَائِدَةً مِمَّن كتبَ لِلإمام الحُسَينِ (عليه السلام)، ولَكِن نَقضُ العَهدِ نَقَلَهُم إلى ضَربٍ أَوحَى الاِستِدرَاجُ بِهِ لِما سَتَئُولُ إليهِ أَحوَالُهُم، فكانَ هذا السُّلُوكُ مُنطَلَقًا يُحِيقُ بِالظَّالِمِ المُستَدرَجِ، فَتَكُونُ استِمرَارُ نِعَمِ اللهِ طَرِيقَةً لِلهَلَاكِ مَع شَرطِ بَقَاءِ النِّعمَةِ، ولِابتِعَادِ الكُلِّيِّ عَنِ الاِستِغفَارِ، ومُدَاوَمةِ ارتِكَابِ المَعَاصِي.

وإِنَّ زهو أَعدَاءِ الإمام الحُسَينِ (عليه السلام) أَفصَحَ عَنْ دُنُوِّ الاِستِدرَاجِ مِنهُم، فَقَد خَيَّمَ عَلَيهِم نِسيَانُ الاِستِغفَارِ، وهِي علامَةٌ كَفِيلَةٌ بِالاِستِدرَاجِ، تَتلُوهَا العَلَامَةُ الثَّانِيَةُ المُؤَكِّدَةُ لِلمَعنَى، وهيَ هَوَسُ النِّعمَةِ الثَّابِتَةِ المُتَمَثِّلَةِ بِالاِستِطَاعَةِ العَدَدِيَّةِ، فهي نِعمَةٌ مَقرُونَةٌ بِالنِّسيَانِ، فَأَطبَقَ علَيهِمُ الاِستِدرَاجُ، وكُلُّ هذا جَاءَ بَعدَ المَوعِظَةِ المُتَكَرِّرَةِ[٩٠]، مِنَ الإمام الحُسَينِ (عليه السلام) وأَصحَابِهِ (رضوان الله تعالى عليهم)، فَانعِدَامُ الوَعيِ في جَيشِ عُمَرَ بنِ سَعدٍ قَبلَ الوَاقِعَةِ أَكَّدَ حَتمِيَّةَ استِحقَاقِهِمُ الهُبُوطَ وخَسَارةَ الدَّارَينِ.

وإِنَّ العِنَايَةَ بِإِيرَادِ مصادِرِ الحُجَّةِ تَأْخُذُ طَابِعَهَا القُرآنِيَّ المُتَّصِلَ بِسِياقِ الوَاقِعَةِ مِنْ حَيثُ المَضمُونُ، وما مَرَّرَتهُ الآيَاتُ مِنَ السَّيرِ في الأَرضِ ثُمَّ اكتِشَافِ ما تَئُولُ إِلَيهِ حَالُها في كُلِّ زَمانٍ ومَكَانٍ، فَيَكُونُ الخِطَابُ مُوَافِقًا لِلسِّيرَةِ، وَقَد حَضَرَ الشَّاهِدُ القُرآنِيُّ لِيُقَوِّيَ الحُجَّةَ وَيُبَيِّنَ مَصِيرَ الظَّلَمَةِ الَّذِينَ أَسرَفُوا في التَّعَدِّي عَلَى الإمام الحُسَينِ وَأَهلِ بَيتِهِ (عليهم السلام)، فَلَم يَنجُ مِنهُم حَتَّى الطِّفلُ الرَّضِيعُ حِينَ «رَمَى حَرمَلَةُ

بنُ كَاهِلٍ الأَسَدِيُّ عَبدَ اللهَ الرَّضِيعَ بِسَهمٍ وَقَعَ في نَحرِهِ فَذَبَحهُ، فَوَضَعَ يَدَهُ تَحتَ مَنحَرِ الرَّضِيعِ حَتَّى امتَلَأَت دَمًا ورَمَى بِها نَحوَ السَّماءِ وَهُوَ يَقُولُ: هَوَّنَ مَا نَزَلَ بِي أَنَّهُ بِعَينِ اللهِ تَعَالَى. اللهُمَّ لَا يَكُونُ أَهوَنُ عَلَيكَ مِنْ فَصِيلِ نَاقَةِ صَالِحٍ، إِلَهِي إِنْ كُنتَ حَبَستَ عَنَّا النَّصرَ فَاجعَلهُ لِما هُوَ خَيرٌ مِنهُ، وَانتَقِم مِنَ الظَّالِمِينَ، وَاجعَل ما حَلَّ بِنَا في العَاجِلِ ذُخرَةً لَنَا في الآجِلِ، اللهُمَّ أَنتَ الشَّاهِدُ على قَومٍ قَتَلُوا أَشبَهَ النَّاسِ بِرَسُولِكَ مُحَمَّدٍ ﷺ»[٩١]، فَكان لِهذا السُّلُوكِ الإِجرَامِيِّ رَدٌّ يُقَابِلُهُ، تَظهَرُ إِشَارَتُهُ بِتَوظِيفِ الحَوَادِثِ في الخِطَابِ القُرآنِيِّ، كما في مُوَاجهةِ صالِحٍ لِقومِهِ وَمُقَابَلَتِهِم بِالكُفرِ والعِنَادِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾[٩٢]، فَما يَترُكُهُ السِّيَاقُ مِنْ عاقِبَةٍ وجزَاءٍ لِما أَنكَرُوا مِنْ مَوَاقِفَ سَبَقَتِ المَعرَكَةَ مِنْ طَلَبِ القُدُومِ لِإِنقَاذِهِم مِمَّا كَانُوا فِيهِ، في سِيرَةٍ بَيَّنَتِ الإِثمَ المُرَكَّبَ والعِقَابَ المُؤَكَّدَ مِنَ الخِذلَانِ جَريًا على سِيَاقِ السُّنَنِ القُرآنِيَّةِ[٩٣]، بالِانتِقامِ مِنْ الظَّالِمِينَ.

ولَكِنَّ اللَّافِتَ حُضُورُ الشَّرطِ مُلَازِمًا لِفِعلِ الِاستِدرَاجِ يُؤَكِّدُ عَلَى سُمُوَّ الأَثَرِ الغَيبِيِّ[٩٤]، وجعلِهِ علامةً على استِشرَافِ النَّصرِ، وهو ما يَتَأَكَّدُ بِوُضُوحٍ في طَلَبِ الجَعلِ الَّذِي يُوحِي بِالمُستَقبَلِ، كما مَثَّلَهُ الإمام الحُسَينُ (عليه السلام) بِقَولِهِ في العِبَارَتَينِ: (إِنْ كُنتَ حَبَسْتَ عَنَّا النَّصرَ فَاجعَلهُ لِما هُو خَيرٌ مِنهُ)، (واجعَل ما حَلَّ بِنَا في العَاجِلِ ذُخرَةً لَنَا في الآجِلِ)، فَقَد أَكَّدَ الفِعلُ البَلاغِيُّ تَخَطِّي الدَّلالةِ اللَّحظِيَّةِ لِأُخرَى مُستَقبَلِيَّةٍ تُعنَى بِالذَّاتِ والمُجتَمعِ والحَيَاةِ[٩٥].

وقَد حَقَّقَ الفِعلُ البَلاغِيُّ حُضُورَهُ في الوَاقِعَةِ، وذَلِك بِالاِستِدرَاجِ المُرتَبِطِ بِالإِمهَالِ لِحِينِ استِحقَاقِ العَذَابِ، فَكانَت تِلكَ أَدعَى صُوَرِ حُضُورِهِ بَعدَ الوَاقِعَةِ، لِإِصرَارِهِم على ما قَامُوا بِهِ مِن هَتكٍ وتَعدٍّ بانَت عَنهُ بلاءُ سرائِرِهِم، في فِعلٍ يُخَالِفُ ما أَظهَرُوهُ في مُخاطَباتِهِم، وقَد تَجَاوَزَ التَّعَدِّي حَدَّهُ حِينَ مَنَعُوهُ مِنَ الرُّجُوعِ دُونَ تَنفِيذِ الأَمرِ، وأَنَّهُم رَفَضُوا رُجُوعَهُ مِنْ حَيثُ قَدِمَ، فَلَو كَانُوا يُؤْمِنُونَ لَفَكَّرُوا كَثِيرًا قَبلَ أَنْ يُقدِمُوا على هذا المَوقِفِ(٩٦)، فَإِذَا كانتِ السَّرَائِرُ تُبلَى في يَومِ المَعَادِ، فَإِنَّهَا في موسِمِ الوَاقِعَةِ قَدِ انكَشفَتْ لِلجمِيعِ.

مِن هذا المُنطلَقِ سارَ مَعَ مَضمونِ الاِستِدراجِ مَعَ مَفهومِ الاِستِشرافِ، بوساطَةِ فِعلٍ بَلاغيٍّ تَتَحقَّقُ بوساطَةِ عَلامَةٍ مَرجِعِيَّةٍ تَأَصَّلَت في تَفاصيلِ الواقِعَةِ، وهيَ عَلامَةٌ تَكمُنُ وَظيفَتُها في الإقناعِ بمُعطى الاِستِشرافِ، وما يَنطَوي عَلَيهِ مِن إشارَةٍ ضامِنَةٍ لِلنَّصرِ المُتَحقِّقِ الذي يَفرِضُهُ اللهُ تعالى تَتويجًا لِلوَعدِ الإلٰهيِّ بِنَصرِ الأَولياءِ، فكانَتِ العَلامَةُ سُرعَةَ الاِستِجابَةِ، لِتكونَ دَليلًا مُباشِرًا لِلبَصيرَةِ قَبلَ البَصَرِ، ومِنها اِستِجابَةُ الدُّعاءِ بِشَكلٍ لَحظيٍّ قابَلَهُ سُلوكٌ مِنَ الإمامِ (عليه السلام) يُبَيِّنُ أَهمِّيَّةَ التَّفاصيلِ في البَلاغَةِ التي قَدَّمَها بِصِناعَةِ عَناصِرِ الإقناعِ بِسَجدَةِ الشُّكرِ لِبَيانِ تَباشيرِ الإجابةِ على أَعداءِ الحُسَينِ (عليه السلام) في يَومِ عاشوراء، ومِن ذلكَ ما وَرَدَ حينَ: «أَقبَلَ رَجُلٌ مِن مُعَسكَرِ عُمَرَ بنِ سَعدٍ يُقالُ لَهُ: مالِكُ بنُ حَوزَةَ، على فَرَسٍ لَهُ، حَتّى وَقَفَ عِندَ الخَندَقِ وجَعَلَ يُنادي: أبشِر يا حُسَينُ، فَقَد تَلفَحُكَ النّارُ فِي الدُّنيا قَبلَ الآخِرَةِ! فَقالَ لَهُ الحُسَينُ (عليه السلام): كَذَبتَ يا عَدُوَّ اللهِ! إنّي قادِمٌ عَلى رَبٍّ رَحيمٍ وشَفيعٍ مُطاعٍ، وذلِكَ جَدّي

رَسولُ الله (ﷺ)، ثُمَّ قالَ الحُسَينُ (عليه السلام): مَن هذَا الرَّجُلُ؟ فَقالوا: هذا مالِكُ بنُ حَوزَةَ. فَقالَ الحُسَينُ (عليه السلام): اللهُمَّ حُزهُ إلَى النّارِ، وأذِقهُ حَرَّها فِي الدُّنيا قَبلَ مَصيرِهِ إلى الآخِرَةِ. قالَ: فَلَم يَكُن بِأَسرَعَ أن شَبَّثَ بِهِ الفَرَسُ فَأَلقَتهُ فِي النّارِ فَاحتَرَقَ. فَخَرَّ الحُسَينُ (عليه السلام) لله ساجِدًا مُطيعًا، ثُمَّ رَفَعَ رَأسَهُ وقالَ: يا لَها مِن دَعوَةٍ ما كانَ أسرَعَ إجابَتَها!»[٩٧]، فكَشَفَ هُوِيَّةَ الشَّخصِ وإثباتَها في ذِهنِ المُتَلَقّي بِهذَا التَّخطّي السَّرديِّ الذي يَعتَمِدُ الحِوارَ بِشِقَّيهِ الدّاخِليِّ ثُمَّ الاِعتِمادَ على المَشهَدِ بِتَشكيلِهِ الخارِجيِّ، لِيَكونَ المُكوِّنُ البَلاغيُّ قَد تَعدّى بوساطَةِ العَناصِرِ السَّردِيَّةِ لِلخَبَرِ، فَقَد كَشفَتِ الهُوِيَّةُ لِتكونَ مُقَدِّمَةً لِتَحقُّقِ الفِعلِ البَلاغيِّ بوساطَةِ عامِلِ تَسريعِ الاِنتِصارِ الآنيِّ المُسنَدِ مِن سُلطَةٍ عُليا، وهذِه السَّجدَةُ تُظهِرُ تَعجُّبَهُ مِن سُرعَةِ الاِستِجابَةِ، غيرَ أَنَّها وَحيٌّ بِأَنَّ الاِستِشرافَ سَيَكونُ عَلى هذا النَّحوِ مِن تَحَقُّقِ النَّصرِ بَعدَ يَومِ عاشوراء، وبهذا يُعبِّرُ عَنِ التَّشخيصِ الذي يَتَضَمَّنُهُ أُسلوبُ النِّداءِ في قَولِهِ: (يا لَها مِن دَعوَةٍ ما كانَ أسرَعَ إجابَتَها!)، ويَستَمِرُّ التَّلميحُ بِاستِشرافِ المُستَقبَلِ حينَ يُؤَكِّدُهُ بِقَولِهِ: (إنّي قادِمٌ عَلى رَبٍّ رَحيمٍ وشَفيعٍ مُطاعٍ، وذلِكَ جَدّي رَسولُ الله (ﷺ)، فَقَد سَعَت جَواباتُ الإمامِ (عليه السلام) في تَسانُدِ المَلفوظاتِ الدُّعائيَّةِ لِتَوصيلِ المَعنى لِلمُتَلَقّي.

وقد تَأَكَّدَ هذا اللَّونُ مِنَ السُّلوكِ الذي فَرَضَتهُ سُلطَةُ الحُسَينِ (عليه السلام) في الطَّفِّ لِتُبَيِّنَ اِلتِصاقَها بِالسَّماءِ، حينَ: «بَرَزَ مِن عَسكَرِ عُمَرَ بنِ سَعدٍ رَجُلٌ آخَرُ، يُقالُ لَهُ: تَميمُ بنُ حُصَينٍ الفَزارِيُّ، فَنادى: يا حُسَينُ وَيا أَصحابَ الحُسَينِ، أما تَرَونَ إلى ماءِ الفُراتِ يَلوحُ كَأَنَّهُ بُطونُ الحَيّاتِ؟! وَالله لا ذُقتُم مِنهُ قَطرَةً حَتّى تَذوقُوا

المَوتَ جُرَعًا! فَقالَ الإمام الحُسَينُ (عليه السلام): مَنِ الرَّجُلُ؟ فَقيلَ: تَميمُ بنُ حُصَينٍ، فَقالَ الإمام الحُسَينُ (عليه السلام): هذا وأبوهُ مِن أَهلِ النّارِ، اللهُمَّ اقتُل هذا عَطَشًا فِي هذَا اليَومِ، قالَ: فَخَنَقَهُ العَطَشُ حَتّى سَقَطَ عَن فَرَسِهِ، فَوَطِئَتهُ الخَيلُ بِسَنابِكِها فَماتَ»[٩٨]، فهو يَسأَلُ عَنِ القائِلِ لِيُثيرَ الِانتِباهَ إلَيهِ مِن جِهَةٍ، ثُمَّ يُعطِي جَانبًا مِن سِيرَةِ والِدِهِ، وهذا يُؤَكِّدُ عِلمَهُ البَديهِيَّ بِالرَّجُلِ، لكِنَّهُ لِغَرَضٍ بَلاغيٍّ يَجعَلُهُ نَكرَةً مُجَرَّدًا مِن قِيمتِهِ، ثُمَّ يُسبِغُ علَيهِ تَعريفًا يُوازِي عاقِبَتَهُ المُستَحَقَّةَ، لكنَّ اللافتَ في قَولِهِ: (اللهُمَّ اقتُل هذا عَطَشًا فِي هذَا اليَومِ)، فَالدُّعاءُ يُقَرِّرُ حُكمًا مُتَعَيِّنًا حاصِلًا لِلفَزارِيِّ الذي هَلَكَ نَتيجَةً لِما أَظهَرَهُ طَريقَةً غَيرَ مُؤَدَّبَةٍ مَعَ الإمامِ (عليه السلام)، فيَبدو أَقَلَّ أذىً مِمّا جَرى عَلَيهِ وأَهلِ بَيتِهِ، فَلَحِقَهُ الهَلاكُ العاجِلُ، فَكَيفَ إنِ ارتَفَعَت دَرَجَةُ الإيذاءِ والتَّعَدِّي؟ وبهذا يَتَبَيَّنُ هَيمَنَةُ الفِعلِ الإعجازيِّ وحُضورُهُ في نِطاقِ عاشوراء، لكنَّ الحِكمَةَ اقتَضَت أن تَسيرَ الواقِعَةُ في سِياقِها الطَّبيعيِّ، لِيَرقى ثَوابُ مَن يُخلِصُ لله فيها، ويتَضاعَفَ أَجرُهُ، وتَعلو دَرَجَتُهُ، مِنَ الحَقائِقِ التي يَكشِفُها الحَدَثُ التّاريخيُّ في حَياةِ المُسلِمينَ هو تَحقُّقُ الأَثَرِ الغَيبيِّ في دُعاءِ الإمامِ الحُسَينِ (عليه السلام) في يَومِ عاشوراء بَعدَ اِستِشهادِهِ بِفَترَةٍ زَمَنيَّةٍ قَصيرَةٍ، بَل إنَّ الحَدَثَ لَيَنطِقُ بِلِسانٍ فَصيحٍ عَن تَحقِيقِ تِلكَ الكَلِماتِ التي أَخبَرَت عَن مَجرياتِ الأَحداثِ المُستَقبَلَةِ بَعدَ يَومِ عاشوراء، وبِأَدَقِّ تَفاصيلِها، لِيَنكَشِفَ مَعَها ظُهورُ خَصائِصِ الأَثَرِ الغَيبيِّ في دُعاءِ المَعصومِ (عليه السلام)[٩٩].

لَقَد جَمَعَت واقِعَةُ الطَّفِّ –حَتّى الرِّمق– بَينَ الخِطابَينِ الأخِيرَينِ، فنَلاحظُ استِدعاءَ صُورِ الأَنبياءِ وتَمَثُّلَ سِيرِهِم في الواقِعَةِ، حَتّى في المَشاهِدِ الأخِيرَةِ مِن حَياةِ سَيِّدِ الشُّهَدَاءِ (عليه السلام)، حينَ: «رَمَى أَبو الحُتوفَ بِسَهْمٍ في جَبْهَتِهِ فَنَزَعَهُ وسَالَتِ الدِّماءُ عَلَى وَجهِهِ، فَقَالَ: اللهُمَّ إِنَّكَ تَرَى ما أَنَا فِي عِبادِكَ هَذِهِ العِصَاةِ، اللهُمَّ أَحصِهِم عَدَدًا، وَأَقتُلْهُم بَدَدًا، وَلا تَذَرْ عَلَى وَجهِ الأَرضِ مِنْهُم أَحَدًا، وَلا تَغفِرْ لَهُم أَبَدًا!»[100]، وقد تَضَمَّنَ دُعاءُ الإمام في عاشوراء، في صُورَتِه الأخيرة، التَّوجُّهَ لاستِئصَالِ أهلِ النِّفاقِ الذين خَدَعُوه بِمُكاتِبِيهِم، وهو يَطلُبُ ما طَلَبَ النبي نُوح (عليه السلام) من قَومِهِ بَعدَ أن لَبِثَ فيهم سِنينَ كَثيرةً وخَبِرَهُم، كما في قَولِهِ تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾[101].

وهذا يُوحي بِهَلاكِ مَن يُعادي الدُّعاةَ إلى الله، فاستِدعاءُ الخِطابِ القُرآنيِّ أَسْهَمَ في تَطوِيرِ اللفظِ وَتَنمِيةِ المَعنى[102]، مِمّا يَجعَلُهُ وَسِيلَةً إقناعِيَّةً، يَمثِّلُها الإمام الحُسَين (عليه السلام) في الطَّفِّ بوساطَةِ صِلَتِهِ بالأنبياءِ في السِّرِّ وَالعَلَن، في السِّيرَة وَالسَّريرة، وهذَا التَّطابُقُ في المَبَادئِ جَعَلَهُ ثابِتَ الرَّأي، صَلبَ الإيمَان، مُستحضِرًا سِيرَةَ الأَنبِياءِ (عليهم السلام) وَثَباتَهُم على الحقِّ، مُتيَقِّنينَ مِن نَصرِ الله وَحُسنِ المَآبِ وَرَفِيعِ الدَّرَجات، وكلُّها تَحقَّقت لِسَيِّدِ شَبابِ أَهلِ الجَنّة، فَهُو سَفينَةُ النَّجاة.

الخاتِمة ونتائج البحث:

١. يَحمِلُ الدُّعاء قيمةً خطابيةً سائرَ الخطابات؛ لأنّه يُمَرِّر بوساطةِ استدعاءِ الخشوعِ واستحضارِ القربِ من الخالقِ العظيمِ، فيأتي الدُّعاء ليُكَمِّلَ مراحلَ القربِ بملفوظاتٍ يعترفُ فيها بالتّقصيرِ؛ فينبغي أنْ تكونَ في بيئةٍ خاليةٍ من كلّ موانعِ اللّقاءِ مع الخالقِ العظيمِ، الذي تتصاغر في حضرتهِ كُلُّ أشكالِ الوجودِ، وبهذهِ الصُّورةِ ائتلفت مجموعةٌ من الدّعواتِ في نطاقِ التّقرّبِ من الرّبِّ الرّحيمِ.

٢. تُشَكِّلُ السَّريرةُ رُكنًا مهمًّا في الخطابِ الدّعائيِّ، فيُحدِث خطابُها هيمنةً للذّاتِ وما تنطلقُ منه؛ فما تصوّره السَّريرةُ يتأكّد في صناعةِ السّيرةِ؛ وهذا التّلازم بين الوجهتين يُسفِر عن طريقةٍ في مخاطبةِ المتوجّه إليهِ بالدُّعاءِ.

٣. إنّ الالتزامَ بعواملِ تصديقِ الدُّعاء يسهمُ في تسريعِ الإجابةِ المنتظرةِ، عندما يستحقّ وصفُه بالدُّعاءِ المُستَجابِ، متى ما أيقنَ الإنسانُ سَيرَهُ بالطريقِ المناسبِ، ومن ثمّ تتحققُ الإجابةُ بما هو ملتزمٌ بهِ.

٤. لقد جمعت واقعةُ الطّفِّ بين الخطابين (القرآنيِّ والدّعائيِّ) حتَّى الرّمقِ الأخير؛ فنلحَظ استدعاءَ صورِ الأنبياءِ عليهم السلام وتمثّلَ سِيرِهم في الوَاقعةِ حتَّى في المَشَاهدِ الأخيرةِ من حَياةِ سيّدِ الشُّهداءِ(عليه السلام).

٥. يَتَعَالَقُ الخِطَابُ الدُّعائيُّ مَع خِطَابِ عَاشوراء فيما ذَكَره المَورُوثُ من سِيرِ الأنبِيَاءِ في مُواجَهَةِ أعدَاءِ الرِّسَالاتِ السّمَاويَّةِ.

﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

والحمدُ للَّهِ سُبْغُ نِعَمِهِ، وَدَوَامُ أَفْضَالِهِ، والصّلاةُ والسَّلامُ على النَّبيِّ مُحَمَّدٍ وآلِهِ الطَّيّبين الطَّاهِرِينَ.

الهوامش:

١ -النَّمل: ٦٩.

٢ -الطَّارِق: ٩.

٣ -الأَحزاب: ١٠-١١.

٤ -ينظر: مختار الأحمدي نويوات، البلاغة العربية في ضوء البلاغات المعاصرة بين البلاغتين الفرنسية والعربية الدراسات المقارنة، دار هومة، الجزائر، ٢٠١٣م: ٤٨٦.

٥ -غافر: ٢٦.

٦ -ينظر: بلاغة الدعاء بحث في المبادئ والسمات والوظائف، عبد الفضيل أحمد إدراوي، كنوز المعرفة، ط١، ٢٠١٨م١٤٣٩هـ: ١٢.

٧ -النثر الصوفي دراسة فنيّة تحليليّة، د. فائز طه عمر، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط١، ٢٠٠٤م.

٨ -أدعية أهل البيت دراسة في تحليل الخطاب، عباس عبد السادة شريف، أطروحة دكتوراه، كلية التربية للعلوم الإنسانية، جامعة البصرة، ١٤٤١هـ٢٠٢٠م: ١٧.

٩ -ينظر: بلاغة الدعاء بحث في المبادئ والسمات والوظائف، ١٦٠-١٦١.

١٠ -أدعية أهل البيت: ١٨.

١١ -المصدر نفسه: ٨٨.

١٢ -ينظر: أدعية أهل البيت: ١٧٦.

١٣ -مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرّازي، دائرة المعاجم في مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٦م: ١٢٤ (مادَّة: سرر).

١٤ -معجم اللغة العربية المعاصرة، د. أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، ط١، ١٤٢٩هـ٢٠٠٨م: ٢/ ٥٥-٥٦.

١٥ -الطارق: ٩.

١٦ -التبيان في تفسير القرآن، أبي جعفر محمّد بن الحسن الطوسي (ت٤٦٠هـ)، تحقيق مؤسّسة آل البيت لإحياء التراث، قم، ط١، ١٤٤١هـ: ١٠/ ٣١٤.

١٧ -الميزان في تفسير القرآن، للعلّامة السيّد محمّد حسين الطباطبائي، أشرف على طباعته الشيخ حسين الأعلمي، منشورات مؤسّسة الأعلمي، بيروت لبنان، ط١، ١٤١٧هـ١٩٩٧م: ٢٠/ ٢٦٠.

١٨ -غافر: ١٩.

١٩ -الحاقّة: ١٨.

٢٠ -التغابن: ٤.

٢١ -الملك: ١٣.

٢٢ -ينظر: المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمّد الراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢هـ)، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ: ١٠٤ (مادَّة: سرر).

٢٣ -طه: ٧.

٢٤ -البقرة: ٧٧.

٢٥ -التبيان في تفسير القرآن: ١٠/ ٣٢٥.

٢٦ -ميزان الحكمة: ٢/ ١٢٨٧.

٢٧ -ميزان الحكمة: ٢/ ١٢٨٧.

٢٨ -ينظر: معجم اللُّغةِ العربيَّة المعاصرة، مادَّة: (س ر ر)، ٢/ ٥٥-٥٦.

٢٩ -نَهجُ البَلاغَة، ضبط نصه وابتكر فهارسه العلمية: د. صبحي الصالح، دار الكتاب اللبناني، بيروت لبنان، ط٤، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م: ٤٧٦.

٣٠ -الإقبال بالأعمال الحسنة فيما يعمل مرة في السنة:١/ ١٦٤.

٣١ -وَهذا لا يُمكِنُ انطِباقُهُ على الرُّسُلِ وَالأَنبياءِ وَالأَولياءِ.

٣٢ -إِقبالُ الأَعمالِ: ٣٠١.

٣٣ -عُرُوجُ السّالِكِينَ: ٥٧٤-٥٧٥، يُنظَر: مِصباحُ المُتهَجِّدِ: ٣٨٢-٣٨٣، ينظر: إِقبالُ الأَعمالِ: ٣٠١-٣٠٢، ينظر: المِصباحُ: ٧٥٣-٧٥٤.

٣٤ -ينظر: أدعية أهل البيت:٨٤.

٣٥ -الرعد: ٣٩.

٣٦ -الأعراف: ١٥٦.

٣٧ -عُرُوجُ السَّالكين: ٥٧٠.

٣٨ -المصدر نفسه: ٥٧٢.

٣٩ -عُرُوجُ السَّالكين: ٥٨٣.

٤٠ -تقابلات النص وبلاغة الخطاب نحو تأويل تقابلي، محمد بازي، الدار العربية للعلوم، بيروت لبنان، ط١، ١٤٣١هـ٢٠٢١م:٢٠.

٤١ -غافر: ٦٠.

٤٢ -عُرُوجُ السَّالِكِين: ٥٩٥.

٤٣ -المصدر نفسه : ٥٩٠.

٤٤ -عُرُوجُ السَّالِكِين: ٥٧٩.

٤٥ -المصدر نفسه: ٥٨٦.

٤٦- عُرُوجُ السَّالِكِين: ٥٩١.

٤٧ -أدعية أهل البيت عليهم السلام: ٩٠.

٤٨ -الإقرارُ هو الاعترافُ؛ يُقال: «أقَرَّ بالشيءِ يُقِرُّ إقرارًا» إذا اعترف به، فهو مُقِرٌّ، والشيءُ مُقَرٌّ

به، وهو إظهارٌ لأمرٍ متقدِّم، وليس بإنشاء. ينظر: المُطَّلع على أبواب الفقه ومعه معجم ألفاظ الفقه الحنبلي، محمّد بن أبي الفتح البعلي الحنبلي (ت٧٠٢هـ)، تحقيق: محمّد بشير الأدلبي، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠١هـ١٩٨١م: ٤١٤.

٤٩ -عُروج السالكين: ٥٨٥.

٥٠ -المصدر نفسه: ١٦٧.

٥١ -البقرة: ٧٧.

٥٢ -عُرُوج السالكين: ٢٤٢.

٥٣ -الكهف: ٤٩.

٥٤ -عُرُوج السَّالكين: ٢٤٩-٢٥٠.

٥٥ -المصدر نفسه: ٣١٠.

٥٦ -معجم الخطاب القرآني في الدعاء، د. مصطفى عليان، الوعي الإسلامي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، العدد ٧٤، ١٤٣٤هـ٢٠١٣م: ٩٠.

٥٧ -عُرُوج السَّالكين: ٤٦٦.

٥٨ -المصدر نفسه: ٤٥٧-٤٥٦.

٥٩ -ينظر: في ظلال القرآن، السيد قطب، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الشرعية الثانية والثلاثون، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٣م:٥/ ٢٥٥٤.

٦٠ -عُروج السَّالكِين: ٤٦٤-٤٦٥.

٦١ -المصدر نفسه: ٤٦٤-٤٦٥.

٦٢ -يُنظر: الاستعارة في النقد الأدبي الحديث الأبعاد المعرفية والجمالية، د. يوسف أبو العدوس منشورات الأهلية، المملكة الأردنية الهاشمية، عمان، ط١، ١٩٩٧م: ٣٨.

٦٣ -التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، القاهرة سيد قطب، الطبعة الشرعية السابعة عشرة،

١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م:٧٣.

٦٤ -قاموس التداوليَّة، جوليان لونجي، جورج إيليا سرفاتي، ترجمة: لطفي السيِّد منصور، الرافدين، بغداد، ط١، ٢٠٢٠م: ٢٣٤.

٦٥ -الحِجاجُ في قصصِ الأمثالِ القديمةِ: مُقاربةٌ سَرديَّةٌ تداوليَّةٌ، د. عادل بن علي الغامدي، كنوز المعرفة، ٢٠١٥: ٣٤٣.

٦٦ -يُنظَر: أدعيةُ أهلِ البيت عليهم السلام: ١٥٤.

٦٧ -المصدر نفسه: ١٦٩.

٦٨ -يُنظَر: بلاغةُ الدُّعاءِ بَحثٌ في المَبادئِ والسِّماتِ والوَظائفِ، عبد الفضيل أحمد إدراوي، كنوز المعرفة، ط١، ٢٠١٨، ١٤٣٩هـ: ٣٢٦.

٦٩ -عُروجُ السالكين: ٥٩٩.

٧٠-عُروجُ السالكين: ٥٧٩.

٧١ -المصدر نفسه: ٥٨٩.

٧٢ -المصدرُ نفسه: ٤٠٥.

٧٣ -يُنظَر: بلاغةُ الدُّعاءِ: بَحثٌ في المَبادِئِ والسِّماتِ والوَظائفِ، عبد الفضيل أحمد إدراوي، كنوز المعرفة، ط١، ٢٠١٨، ١٤٣٩هـ: ٣٦٤.

٧٤ -عُروجُ السالكين: ٥٧٤-٥٧٥.

٧٥ -المصدرُ نفسه: ٥٧٤-٥٧٥.

٧٦ -بلاغة الاستشراف ، محمد بن سعد الدكان، جداول للنشر، بيروت لبنان، ط١، ٢٠١٩م : ١٩.

٧٧ -عُرُوج السَّالِكِين:٥٩١.

٧٨ -المصدر نفسه: ٥٩٦.

٧٩ -المصدر نفسه:٦٠١.

٨٠ -عُرُوج السَّالِكين: ٤٢٠-٤٢١.

٨١ -كتاب التعريفات ، الشريف الجرجاني، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٥م: ٣٠.

٨٢ -معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أبو البقاء أيّوب بن موسى الحسيني الكفوي، تحقيق: عدنان درويش، محمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٩هـ١٩٩٨م، ١/ ١٥٧.

٨٣ -أَدعيةُ الإمامِ الحُسين، محمّد علي علي دخيل، دارُ المرتضى، لبنان بيروت، ١٤٢٠هـ ٢٠٠٠م: ١٩٢.

٨٤ -يونس:٨٨-٨٩.

٨٥ -دعاءُ الإمامِ الحُسين عليه السلام في يومِ عاشوراء بين النَّظريةِ العلميّة والأثرِ الغيبيّ، دراسةٌ معاصرة، السيِّد نبيل قدوري الحسني، قسم الشؤون الفكريّة والثقافيّة في العتبةِ الحُسينيّةِ المقدَّسة، العراق، كربلاء، ١٤٣١هـ ٢٠١٠م: ١/ ١٨١.

٨٦ -نهجُ الدعاءِ، محمّد الريشهري وآخَرون، دار الحديث، قم المقدّسة، ١٣٨٦هـ ش: ٦٢٥.

٨٧ -ينظر: أدعيةُ الإمامِ الحُسين عليه السلام: ٦١.

٨٨ -الأعراف: ١٨٢.

٨٩ -القلم: ٤٤.

٩٠ -ينظر: دعاء الإمام الحسين عليه السلام في يوم عاشوراء بين النظرية العلمية والأثر الغيبي – دراسة معاصرة، ص ١٨٧.

٩١ -أدعية الإمام الحسين عليه السلام: ١٢٥.

٩٢ -الشمس: ١٣-١٥.

٩٣ -ينظر: المدرسة القرآنية، السيد محمد باقر الصدر، مكتبة سلمان المحمدي، لبنان، ط١، ١٤٣٤هـ ٢٠١٣م: ٤٥.

٩٤ -ينظر: دعاء الإمام الحسين عليه السلام في يوم عاشوراء بين النظرية العلمية والأثر الغيبي – دراسة معاصرة: ١/ ٢٠٩.

٩٥ -ينظر: بلاغة الاستشراف، محمد بن سعد الدكان، جداول للنشر، بيروت، ط١، ٢٠١٩م: ١٨.

٩٦ -ينظر: المصدر نفسه: ١٨٩.

٩٧ -نهج الدُّعاء: ٦٣٢.

٩٨ -نَهج الدُّعاء: ٦٢٦، ٦٢٩، ٦٣٣.

٩٩ -ينظر: دعاءُ الإمامِ الحُسَينِ عليه السلام في يَومِ عاشوراء بين النَّظرية العِلمية والأَثرِ الغَيبيِّ، دِراسَة مُعاصرة: ١/ ٢٠٩.

١٠٠ -أدعية الإمام الحسين عليه السلام: ١٢٦.

١٠١ -نوح: ٢٦-٢٧.

١٠٢ -ينظر: التعالق النصّي في الخطاب النقدي والإبداع الشعري، نانسي إبراهيم، دار رؤية للنشر، القاهرة، مصر، ط١، ٢٠١٤م: ٩٠.

قائمة المصادر والمراجع:

أوَّلًا : القرآن الكريم.

ثانيًا : الكتب المطبوعة:

١. أبو البقاء أيّوب بن موسى الحسينيّ الكفويّ، معجم في المصطلحات والفروق اللّغويّة، تحقيق: عدنان درويش، محمّد المصريّ مؤسّسة الرّسالة، بيروت، ١٤١٩هـ ١٩٩٨م.

٢. أبو القاسم الحسين بن محمّد الرّاغب الأصفهانيّ (٥٠٢هـ) ،المفردات في غريب القرآن، تحقيق: صفوان عدنان الدّاودي، دار القلم، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ.

٣. أبو جعفر محمّد بن الحسن الطّوسيّ(٤٦٠هـ)، مصباح المتهجّد، أشرف على طباعته الشّيخ حسين الأعلميّ، منشورات مؤسّسة الأعلميّ، بيروت لبنان، ط١ ، ١٤١٨هـ، ١٩٩٨م.

٤. أبو جعفر محمّد بن الحسن الطّوسيّ(ت٤٦٠هـ)، التّبيان في تفسير القرآن، تحقيق: مؤسّسة آل البيت -لإحياء التّراث ، قم، ط١، ١٤٤١هـ.

٥. أبو نصر إسماعيل بن حمّاد الجوهريّ(٣٩٣هـ)، الصّحاح تاج اللّغة

وصحاح العربيّة، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطّار، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٤، ١٤٠٧هـ١٩٨٧ م.

٦. ابن منظور الأنصاريّ (٧١١هـ)، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤١٤ هـ.

٧. السّيّد رضا حسين صبح الحسنيّ، عروج السَّالكين في أدعية وأعمال وصلوات شهر رمضان المرويّة عن النّبيّ والأئمّة الطّاهرين(عليهم السلام) وشروحها، مؤسّسة النّشر الإسلاميّ، الجمهوريّة الإسلاميّة، قم المقدّسة، ط١، ١٤٢٤هـ.

٨. السّيّد محمّد باقر الصّدر، المدرسة القرآنيّة، مكتبة سلمان المحمّديّ، لبنان ، ط١، ١٤٣٤هـ ٢٠١٣م.

٩. السّيّد نبيل قدوري الحسنيّ، دعاء الإمام الحسين – في يوم عاشوراء بين النّظرية العلميّة والأثر الغيبيّ دارسة معاصرة، قسم الشّؤون الفكريّة والثّقافيّة في العتبة الحسينيّة المقدّسة، العراق ، كربلاء، ١٤٣١هـ، ٢٠١٠م.

١٠. الشّريف الجرجانيّ، كتاب التّعريفات، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٥م.

١١. الشّيخ تقي الدّين إبراهيم بن عليّ بن الحسن محمّد العامليّ الكفعميّ (٩٠٠هـ)، المصباح، أشرف على طباعته: الشّيخ حسين الأعلميّ، منشورات مؤسّسة الأعلميّ، بيروت لبنان، ط١، ١٤١٤ هـ١٩٩٤م.

١٢. العلّامة السّيّد محمّد حسين الطّباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، أشرف على طباعته الشّيخ حسين الأعلميّ، منشورات مؤسّسة الأعلميّ، بيروت، لبنان، ط١ ، ١٤١٧هـ١٩٩٧م.

١٣. الفيروز آبادي (٨١٧هـ) ، القاموس المحيط، تحقيق: مكتب تحقيق التّراث في مؤسّسة الرّسالة، إشراف: محمّد نعيم العرقسُوسيّ، مؤسّسة الرّسالة، بيروت- لبنان ، ط٨، ١٤٢٦هـ٢٠٠٥م

١٤. المعجم الوسيط، مكتبة الشّروق الدّوليّة، القاهرة، ط٤ ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م.

١٥. جوليان لونجي، جورج إيليا سرفاتي، قاموس التّداوليّة، ترجمة: لطفي السّيّد منصور، الرّافدين- بغداد، العراق، ط١، ٢٠٢٠م.

١٦. د. أحمد مختار عمر (١٤٢٤هـ) عالم الكتب، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة، القاهرة، ط١، ١٤٢٩هـ ٢٠٠٨م.

١٧. د. عادل بن عليّ الغامديّ، الحِجاج في قصص الأمثال القديمة مقاربة سرديّة تداوليّة، كنوز المعرفة، ٢٠١٥م.

١٨. د. فائز طه عمر، النّثر الصّوفيّ دراسة فنّيّة تحليليّة، دار الشّؤون الثّقافية العامّة، العراق-بغداد، ط١، ٢٠٠٤م.

١٩. د. مختار الأحمدي نويوات، البلاغة العربيّة في ضوء البلاغات المعاصرة بين البلاغتين الفرنسيّة والعربيّة الدّراسات المقارنة، دار هومة، الجزائر، ٢٠١٣م.

٢٠. د. يوسف أبو العدوس ، الاستعارة في النّقد الأدبي الحديث الأبعاد المعرفية والجمالية، منشورات الأهلية، المملكة الأردنية الهاشمية، عمان، ط١، ١٩٩٧م.

٢١. رضي الدين أبو القاسم على بن موسى بن جعفر بن محمّد بن طاووس الحسني الحسيني (ت٦٦٤هـ)، إقبال الأعمال، قدّم له وعلّق عليه الشّيخ حسين الأعلميّ، منشورات مؤسّسة الأعلمي، بيروت، لبنان، ط،١٤١٧هـ، ١٩٩٦م.

٢٢. رضيّ الدّين أبو القاسم عليّ بن موسى بن جعفر بن محمّد بن طاووس الحسنيّ الحسينيّ (ت ٦٦٤هـ) تحقيق: جَوَاد القيُّومي الأصفهاني، الإقبال بالأعمال الحسنة فيما يعمل مرّة في السّنة/ مضمار السّبق في ميدان الصّدق، مطبعة مكتب الإعلام الإسلاميّ، إيران، قم، ط٢، ١٤١٨هـ.

٢٣. سيّد قطب، التّصوير الفنّيّ في القرآن، دار الشّروق، القاهرة ، الطّبعة الشّرعيّة السّابعة عشرة، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م.

٢٤. سّيّد قطب، في ظلال القرآن، دار الشّروق، القاهرة، الطّبعة الشّرعيّة الثّانية والثّلاثون، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٣م.

٢٥. عبد الفضيل أحمد أدراوي، بلاغة الدّعاء بحث في المبادئ والسمات

والوظائف، كنوز المعرفة، ط١، ٢٠١٨، ١٤٣٩هـ.

٢٦. محمد بن سعد الدكان، بلاغة الاستشراف، جداول للنّشر، بيروت لبنان، ط١، ٢٠١٩م.

٢٧. محمد علي علي دخيل، أدعية الإمام الحسين-، دار المرتضى، لبنان ،بيروت، ١٤٢٠ هـ ٢٠٠٠م.

٢٨. محمّد الرّيشهري، ميزان الحكمة عقائديّ، اجتماعيّ، سياسيّ، اقتصاديّ، أدبيّ، دار الحديث، قم المقدّسة، ط١، ١٤٢٢هـ.

٢٩. محمّد الرّيشهري وآخرون، نهج الدّعاء، دار الحديث، قم المقدّسة، ١٣٨٦ هـ ش.

٣٠. محمّد بازي، تقابلات النّصّ وبلاغة الخطاب نحو تأويل تقابليّ، الدّار العربيّة للعلوم، بيروت لبنان ط١، ١٤٣١هـ، ٢٠١٠م.

٣١. محمّد بن أبي الفتح البعليّ الحنبليّ(ت٧٠٢هـ)، المطلع على أبواب الفقه ومعه معجم ألفاظ الفقه الحنبليّ، تحقيق: محمّد بشير الأدلبيّ، المكتب الإسلاميّ، بيروت، ١٤٠١هـ١٩٨١م.

٣٢. محمّد بن أبي بكر بن عبد القادر الرّازيّ، مختار الصّحاح، دائرة المعاجم في مكتبة لبنان، بيروت ١٩٨٦م.

٣٣. محمّد بن أحمد بن الأزهريّ، تهذيب اللّغة، أبو منصور(٣٧٠هـ)، تحقيق: محمّد عوض مرعب، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، ط١، ٢٠٠١م.

٣٤. محمّد مرتضى الحسينيّ الزَّبيديّ، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: جماعة من المختصين، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٤٢٢هـ،٢٠٠١ م.

٣٥. نانسي إبراهيم، التّعالق النّصّيّ في الخطاب النّقدي والإبداع الشّعريّ، دار رؤية للنّشر، القاهرة، مصر، ط١، ٢٠١٤م.

٣٦. نَهجُ البَلاغَة، ضبط نصّه وابتكر فهارسه العلميّة: د. صبحي الصّالح، دار الكتاب اللّبنانيّ، بيروت، لبنان، ط٤، ١٤٢٥هـ٢٠٠٤م.

ثالثًا: الرَّسائل والأطاريح الجامعيَّة:

١. عبّاس عبد السّادة شريف، أدعية أهل البيت دراسة في تحليل الخطاب، (أطروحة دكتوراه)، كلّيّة التّربية للعلوم الإنسانيّة، جامعة البصرة، ١٤٤١ هـ٢٠٢٠ م.

رابعًا: الدّوريّات:

١. د. مصطفى عليان، معجم الخطاب القرآنيّ في الدّعاء، الوعي الإسلاميّ، مجلّة كويتيّة شهريّة جامعة، تصدرها وزارة الأوقاف والشّؤون الإسلاميّة، دولة الكويت – في مطلع كلّ شهر عربيّ، ط١ الإصدار الرّابع والسَّبْعُونَ، ١٤٣٤ هـ ٢٠١٣ م.